

المحاضرة الاولى

تعد **الدولة الأموية** ثاني هيئة تأسيسية في الإسلام ، **جاءت عقب الخلافة الراشدة** ، وعبرت بالأمة مفترقا كاد يعصف بها ويقضي عليها ، ولذا سمي العام (٤٠ هـ) الذي آلت فيه الأمور لمعاوية رضي الله عنه بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه بعام الجماعة ، حيث اتفقت فيه كلمة المسلمين وتوحدت فيه صفوفهم وعلت فيه رايتهم .

وقد قدر الله لهذه الدولة أن تعيش مراحل من القوة ، وأن تحقق إنجازات حضارية وعالمية ، كما قدر الله لها أن تمر بمنعطفات خطيرة وأزمات حادة أثرت طريقة معالجتها على سمعتها ومنزلتها .

إن دراسة تاريخ الدولة الأموية لا يعني فقط بسط الحديث عن الخلفاء وتواريخهم ، بل هو إلى جانب ذلك يعني دراسة واقع أمة مسلمة طيلة **ثلاث وتسعين عاماً هو عمر الدولة** بما فيها من فئات وأجناس ونظم .

هذا الواقع هو ما سوف نسعى لتجليته بالقدر الذي تسمح به النصوص التاريخية ، ومن الله تعالى العون والسداد .

البيت الاموي

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش.

وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد، والمال وكثرة العصبية كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب. وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف **فمنهم العنابس**: وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو **ومنهم الأعياص**: وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص. وقد **كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار** وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم، رهن لسدادها ولده أبا سفيان وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب. فلم يكن هذان البطنان متعاضدين في الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية، وإنما كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في

الأحيان المتقاربة، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف في الشرف في الجاهلية الأولى، بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً.

لما جاءت النبوة، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الله أجابه من بني عبد شمس جمع كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك، إلا أن بني هاشم وبني عبد المطلب حذبا على رسول الله للعصبية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته، وكان يزاحم بني عبد مناف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي.

ولما انتمر المشركون على اغتيال رسول الله ﷺ كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بني هاشم إلا أبو لهب. جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله ﷺ إلا عدد قليل من بني عبد الشمس. وكان القائد الأكبر لقريش في بدر من بني عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة، **ورئيسهم في أحد والأحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية** بن عبد شمس، ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة. وكان أبو سفيان رجلاً عظيماً في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً محبة الفخر والذكر. فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله ﷺ فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفاً له وتحبباً إليه ما لم يعطه أحداً، وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة: من أغمد سيفه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فسوى بين بيته وبيت الله، وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن. وفي ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوي النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح. وكان رسول الله ﷺ أسر الناس بإسلامهم، كان يقابلهم قائماً فاتحاً ذراعيه معانقاً لهم كان فعل بصفوان بن أمية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله ﷺ أن عفوه عنهم سيكون عيباً لا حقاً بهم يعيرون به في مستقبل أيامهم.

بعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شاباً من بني عبد شمس. استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلاوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسناً ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم في شوق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للإسلام حتى يكتب لهم في نصرته ما يمحو ما كتب عليهم في مغاضبته.

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكركم **يزيد بن أبي سفيان، فقد كان ولاء أبو بكر في قيادة أحد الجنود الأربعة التي توجهت لتوح الشام وكان الوالي على دمشق لعمر بن الخطاب،** وكان أخوه معاوية عاملاً على إحدى الجهات الشامية، فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير ولأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله. **وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها الهام ويولي على الكور عمالاً من قبله.** ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهبوها بالطاعة.

وعلى الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام " الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " فاتصلت له السادتان.

وفروعه التي كانت فيها الشهوة والخلافة اثنان: فرع حرب بن أمية، وفرع أبي العاص بن أمية وكان من الفرع الأول: ثلاثة خلفاء، ومن الثاني: عشرة.

ومدة خلافة هذه الدولة تبتدئ من اليوم الذي بويع فيه معاوية بيعة عامة في (٢٥) ربيع الأول (سنة ٤١) وتنتهي بمقتل مروان الثاني بن محمد (سنة ١٣٢) لثلاث بقين من ذي الحجة وهي (٩١ سنة وتسعة أشهر).

معاوية بن أبي سفيان

ترجمته:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنة (٢٣ سنة) وفي ذلك اليوم دخل في الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي خلافة أبي بكر ولاء قيادة جيش مدداً لأخيه يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقه وجبل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاء عمر ولاية الأردن. ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاء عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها. وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاية أمصارها تحت أمره، وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة في

أمر عثمان وإيواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه على بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لإمامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعلى إمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية. وحينئذ اجتمع على بيعه معاوية أهل العراق والشام وسمى ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الأول (سنة ٤١).

طريقة انتخاب معاوية:

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم حكيمين، ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة. فلما قتل علي بن أبي طالب وبايع جند العراق ابن **الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه، فبايعه في ربيع الأول (سنة ٤١)** فبيعته اختياراً من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق، إلا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج.

حالة الأمة عند استلام معاوية الأمر:

تولى معاوية أمر الأمة، وهي أقسام ثلاثة: القسم الأول شيعة بن أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار والإسلامية. القسم الثاني: شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر. القسم الثالث: الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين. وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علي لأن كلا قد ألد على زعمهم في الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والإقدام، ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب الأمن عليها. أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة. صانع رؤوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى

والمكروه، وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومراقته فيه تنزل عنها الأقدام .

كان الذي يهيم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلوا في الدين علواً عظيماً فهموا كثيراً منه على غيره وجهه، ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبه استعراض الأنفس وأخذ الأموال. ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم.

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلاً في (٥٠٠) من الخوارج

فأروا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل إليهم معاوية جمعا من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم، فقال معاوية لأهل الكوفة: والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونيهم، فخرج إليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج: أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيناكم فقالوا: لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة، فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم.

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثة الأسيدي فسار حتى قدم النخيلة في (١٥٠) وانضم إليه فل ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثة اكفني أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأدراه فصمم فقال له يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني، فرجع إلى معاوية فأخبره، فقال يا أبا حوثة عتا هذا جداً، ولما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه، فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال: يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم.

فحمل عليه رجل من طيء فقتله. فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله ثم توالى الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لا بد من توليه العراق رجلاً نوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشتدون في طلب المريب. فاختر رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة .

فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان والياً على فارس وقتل علي وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً في استقدامه فأتى المغيرة زياداً وقال

له: إن معاوية استخفه الوجل حتى بعثني إليك ولم يكن أحد يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى عنك معاوية فقال زياد: أشر على وأرم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن فقال له المغيرة: أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه ويقضي الله. وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل إلى علي وبما بقي عنده. فصدقه معاوية وقبض منه ما بقي عنده. وفي (سنة ٤٤) استلحق معاوية زياداً ألقاه بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلى زياد في حياة علي يعرض له بولاية أبي سفيان إياه فلما علم بذلك على كتب إلى زياد يقول له (إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحمل له نسباً وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل علي رأى معاوية أن يستميل زيادا واستصفى مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان وإن كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول لها: من زياد بن أبي سفيان وهو يريد أن يكتب له بهذا العنوان، فكتبت: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد. وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستحلاف فسمع بذلك أخوه أبو بكره وكان له مهاجراً فجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال: له يا بني قل لأبيك إنني سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك إلى المدينة، ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأب حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، فإن أذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا. فترك زياد الحج .

في السنة الخامسة والأربعين ولاة معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول (سنة ٤٥) والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء، وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها. ولما في هذه الخطبة من روائع الحكم، وبيان سياسته في حكم بلاد، أحببنا إيرادها قال:

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور والعظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم

في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله. ما هذه المواخير المنصوبة الضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل؟ ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزول بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أرقوا وراءكم كؤوسا في مكائس الريب. حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف وشدة في غير عنف وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة المنبر بقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها: من نعب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه وقد آجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإياي ودعوى الجاهلية إني لا أجد أحداً عليها إلا قطعت لسانه.

وقد أحدثتم أحداثاً لم يكن. أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نعب بيتاً نعبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي، ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عاملتكم إلا ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً. ومن كان مسيئاً فلينزح عن إساءته. إني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره. فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم. فرب مبتئس بقدمنا سيسر ومسرور بقدمنا سيبتئس

أيها الناس إذا أصبحنا لكم ساسه وعنكم زاده نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونزود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه، ولا مجمراً لكم بعثاً، فادعوا الله بالصالح لأنتمكم فإنهم ساستكم المؤدبون

وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدرکوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم. أسأل الله أن يعين كلا على كل، فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنقذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي).

فقام إليه عبد الله بن الأهمم فقال: أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. فقال: كذبت ذلك نبي الله داود فقال الأحنف: لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وأنا لن نثني حتى نبتلى فقال: صدقت. فقام إليه أبو بلال مرداس بن أديه وهو من الخوارج وقال: أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى: (وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزرة أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا: زياد. فقال زياد: إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوفاً.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر. فكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ صورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله. فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال له: هل سمعت النداء؟ فقال لا والله قدمت بحاوية لي وغشيني الليل

فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال: أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه. وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرّد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس

خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه. ولا يغلق عن أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرطة أربعة آلاف وقيل له إن السبيل مخوفة، فقال لا أعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني أشد غلبة منه. فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه. قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج: كان يقتل المعلن ويسلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة. ووجه يوماً بحينة بن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأي الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال: إني أريد أن أحدث وضوءاً للصلاة فدعني أدخل إلى منزلي قال ومن لي بخروجك قال: الله عز وجل، فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتى به بحينه زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد

ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فأنكرت ذلك فذكر الرجل به فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم اقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولاً فصدقه بفعلك وكان من قولك: ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت. فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً لنفسه ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ما ترون. وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن إتياني إلا الرحلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول أغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زيادا عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف. فكان أبو الخير يقول: ما رأيت شيئاً خيراً من لزم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى أنكر منه زيد شيئاً فتمنر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات.

وفى (سنة ٥٠) أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فصار

والى المصريين وهو أول من جمعا له (س اختبار). فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر. فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: لياخذ كل رجل منكم جليسه. ولا يقولن لا أدري من جليسي، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة، يحلفون ما منا حصبك، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم. واتخذ زياد المقصورة حين حصب. وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكفة مثلها.

كان بالكوفة جماعة من شيعة علي رأسهم حجر بن عدي الكندي وعمرو ابن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله، فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال: أما بعد: فإن غب البغي والغي وخيم إن هؤلاء جموا فاشروا وأمنوني فاجترأوا على الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده، ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان، وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر ن يجيء، فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل، فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال: تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا والله من رجسكم، والله لتظهروا براءتكم

أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم، فقالوا: معاذ الله أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك. قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته: انطلق إلى حجر فانتني به، فإن أبي فشدوا عليهم بالسيوف حتى يأتوني به وبمن معه .

فبعد خطوب طويلة جيء به لما رآه زياد قال له مرحباً أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وقد سالم الناس، على أهلها تجني براقش، فقال حجر: ما خلعت طاعة، ولا فارقت جماعة وإني على بيعتي، فأمر به إلى السجن، ثم طلب أصحابه بعضهم وأخذ بعضهم، وعدتهم اثنا عشر رجلاً فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه وبالبراءة من عدوه وأهل حربيه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة، فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه إلى معاوية فسر بهم حتى انتهوا إلى مرج عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة، وهم الذين تبرأوا من علي بن أبي طالب .

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم. فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت، وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر .

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفي فإن أخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جارياً على القانون الشرعي الذي يقصر المسؤولية على المجرم. وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتية. ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نعب عن بيت نعب عن قلبه ومن نبش قبراً دفنه فيه حياً ومن ذلك: عقوبة للمدج بالقتل. هذه قوانين عرفية شديدة رآها لأنفة لأهل العراق وقد أفادت في إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقل خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحى في سبيل الوصول إلى ذلك شيئاً كثيراً .

والتاريخ إنما يعطي الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضماً لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاية العراق إسرافاً في الدماء، ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقاً بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقاً عن إبانته ولا يجمر لهم بعثاً، وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالي وصدقها لا تجد سبباً للثورات ولا للفتن، ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعده به من العقوبات إلا قليلاً لأن علمهم بصدقته في الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم.

وعلى الجملة فإن عهد زياد العراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن، وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق أسفاً، وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة، وإذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء أو الخلفاء من غير بيئة واضحة .

المحاضرة الثانية

شخصيات اسهمت في قيام الدولة الاموية

المغيرة بن شعبة - عبيد الله بن زياد - الفتوح في عهد معاوية

بيعة يزيد - وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة:

أما **المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين**. أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم. وكان يؤتى فيقال: إن فلاناً يرى رأي الشيعة وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، فكان يقول: قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقي بعضهم بعضاً، ويتذكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن

في الإقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر. وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر، منهم المستورد بن علفة التميمي، من تيم الرباب، وحيان بن ظبيان السلمي، ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي، فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتفقوا أن يتجهزوا ويخرجوا في غرة هلال شعبان (سنة ٤٣) فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم افقوا على الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم. فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً؟! قال المغيرة: بلى قد بلغني ذلك عنكم قد صدق ذلك عندي جماعتكم. قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرأنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه .

فأمر بهم إلى السجن فلم يزالوا في نحو من ستة وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد وأصحابه. فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فخرج خطيباً على أهل الكوفة قائلاً :

أما بعد: فقد علمتم أيها الناس أنني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإنني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهاكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وأيم الله لقد خشيت أن لا أجد بدأً من أن يعصب الحليم التي بذنب السفية الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم. وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في مصر بالشقاق والخلاف وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إدارة الحجة والإعذار) فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمي لك أحد من هؤلاء القوم؟ فإن كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفييناكهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأنتك كل قبيلة بسفهاها. فقال ما سمي لي أحد منهم

ولكن قد قيل لي أن جماعة يريدون ن يخرجوا بالمصر، فقال معقل: أصلحك الله، فإني أسير في قومي وأكفيك ما هم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه. فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفيني كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فو الذي لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تتكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون فلا يلم لائم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر. فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة .

ولما كان الخوارج قد نزلوا في إحدى دور عبد القيس قام صمة بن صوحان العبدي وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدي فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطاباً حسناً قال في آخره (ولا قوم فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا بالكفر، فإياكم أن تؤوؤوهم في داركم أو تكتموا عليهم فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكي لي ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فإن دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدي .

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فقتلوا بها (٣٠٠) رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة. فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأي فمن ترون أبعث إليهم؟ فقام إليه عدي بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار إليهم؟ فقام معقل بن قيس فقال إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً ولا أرى أصلحك الله أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني إليهم فإني أكفيكم بإذن الله فقال أخرج على اسم الله. فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيروهم من نقاوة شيعة علي وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري في (٣٠٠) فلحقهم بالمدار مقيمين

فبات ليلته حتى إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم إنسان. ثم إن أبا الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضاً وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريباً منهم لا نزايلهم حتى قدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتل فقال له رجل: إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا مثلك إنا ما لم ندع المعركة فلم نهزم إنا متى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنكن على حال حسنة حتى يقدم علينا جيش فوقفوا قريباً منهم حتى قدم معقل، فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ: أصلحك الله إن لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس رداءً لهم فقال نعماً رأيت فما كان ريثماً قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال: الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من (٢٠٠ رجل) ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الكل. وفي أثناءه بلغ الخوارج أن جيشاً من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعاً آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته (٦٠٠) فلحقهم بجر جرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبو الرواغ وبقي معه نحو مائة رجل فعطف عليهم .

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذي كانوا فيه. ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ في آثارهم. قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فلهم فلنقابل معقلاً قبل أن يلتقي أصحابه فعاد المستورد بجنده وترك الرواغ بعد أن خدعه ولم يكن إلا قليل حتى التقى بمعقل وأصحابه

ومقدمته ليست عنده. فلما رأهم معقل نصب رايته ونزل ونادى: يا عباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من (٢٠٠) رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرمح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة. وبينما هم على تلك الحال إذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجة أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة منهم، وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد وبيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره، وعلاه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة. قال الشعبي: ما ولينا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقاً بصالح من كان قبله من العمال. وأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهرأ وهو من أحسن شيء سيرة وأشدّه حبا للعافية غير أنه لا يدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن بهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه. كان يقول لا أحب أن أبتدى أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيا معاوية وينزل يوم القيامة المغيرة. ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حلیمهم وواعظ سفيهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكرونني

لو قد جربوا العمل بعدي. قال شيخ من أهل الكوفة: قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبريء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر. وتوفى المغيرة (سنة ٥١) ولو وازناه بزياد لرجح عليه لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف.

عبيد الله بن زياد :

ومن ولاية العراق الأشداء عبيد الله بن زياد وياه معاوية البصرة (سنة ٥٥) وقد اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد، فقتل منهم (سنة ٥٨) جماعة كثيرة صبرأ وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل صبرأ عروة بن أديّة، أخو أبي بلال مرداس بن أديّة. وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج في رهان له، فلما

جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أديه فأقبل على ابن زياد فقال
خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون *
وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين
أخريين. فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه إلا ومعه جماعة من
أصحابه، فقال وركب وترك رهانه فليل لعروة: ما صنعت؟ تعلمن والله ليقتلنك،
فتواري فطلبه ابن زياد في الكوفة فأخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به
فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى؟ قال أرى أنك أفسدت دنياي
وأفسدت آخرتك فقتله، وأرسل إلى ابنته فقتلها. وخرج أخوه مرداس في أربعين
رجلاً بالأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي
فهزمه الخوارج.

ولم يزل عبيد الله واليا على البصرة حتى توفي معاوية.

**وفي مصر كان الوالي عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل واليا
عليها حتى مات (سنة ٤٣) فولى بدله ابنه، ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاية
سيأتي ذكرهم متى بدأنا في تاريخ مصر.**

**أما الحجاز فكان ولاته دائما من بني أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان ابن
الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها.** وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني
حرب ولاء الطائف فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاء مكة معها فإن أحسن
الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة، فكان إذا ولي الطائف
رجلاً قيل هو في أبي جاد فإذا ولاء مكة قيل هو في قران فإذا ولاء المدينة قيل
هو قد حذق، وكان ولاية المدينة في الغالب هم يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم
يحج نفسه إلا مرتين (سنة ٤٤) و (سنة ٥٠) وفيما عداهما كان يقيمه
هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية .

الفتوح في عهد معاوية:

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة والذي كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبد الله بن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند القيقان مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه. وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بته ولاهور وهما بين الملتان وكابل فلقى العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين. وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم. **كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان: أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني** الذي ولي الملك من (سنة ٦٤١) إلى (سنة ٦٨٥) ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار. **فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً** أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك **كثرة الغابات بجبال لبنان** حتى بلغت أساطيل (١٧٠٠) ألفاً وسبعمئة سفينة كاملة العدة والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة **وافتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس** افتتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم .

وأما في البر فرتب الشواتي والصوائف. والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف. فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو. **وفي (سنة ٤٨) جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو** معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي

فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل.

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبره قتله معاوية فقال لأبيه: والله هلك فتى العرب فقال: ابني أو ابنك؟ قال ابنك فأجرك الله.

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفنهم. وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليه رسول الله ﷺ بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان **ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم.**

ومن الفتوح العظيمة ما كان في إفريقية ففي (سنة ٥٠) استعمل معاوية عقبة ابن نافع وكان مقيماً ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح. فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل إفريقية وانضاف من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم. **ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع وبني الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها (٣٦٠٠ باع) وتم أمرها (سنة ٥٥) وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل سرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها.**

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على إفريقية مولى له يقال أبو المهاجر فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاية عوضاً عن أن يستعين بآراء سلفه وتجابه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفئ اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها. وترون مثل هذا بين أظهركم للآن فإنه ما ولى إنسان عملاً بعد رجل آخر إلا اجتهد أن يسيء سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولى سيرة رجل عارف بالأمور، وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتى يكون للأول الاسم وحده، والأمة التي عندها مثل هذا الكفر العقيم لا يمكن أن تتجح أو تسود.

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذر إليه ووعدته بإعادته إلى عمله وتمادى الأمر حتى توفي معاوية. وسنبين لكم في خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله .

البيعة ليزيد بولاية العهد:

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه

الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته. ودخل على يزيد وقال له: قد ذهب أعيان

أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم أنت وأفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال: أو ترى ذلك يتم: قال: نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال يزيد، فقال: قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بذلك قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين

المصريين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به في ذلك؟ وترى وترى.

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر يزيد. فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. فرجعوا وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد. فأرسل إلى زياد يستشيريه فأحضره زياد عبيد بن كعب النميري وقال: إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعاً، وإن الناس قد أبدع بهم خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضع السر إلا أحد رجلين رجل آخره يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه قد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصف، إن أمير المؤمنين كتب إلي يستشيرني في البيعة ليزيد، إنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم لك ولا تعجل فإن دركا في تأخير خير من فوت في عجلة فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال وما هو قال لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض إليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه إنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس

ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة فقال زياد لقد رميت الأمر بحجره اشخص على بركة الله فإن أصبت فمما لا ينكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منه. فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له أني كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي. وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي

وكرهت ردون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم فقالوا: أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو. فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد. **فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال: ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كما مات هرقل قام هرقل. وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير** فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار. فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة. فقال محمد بن عمرو لمعاوية إن كل راع مسئول من رعيته فانظر من تولى أمر أمة محمد. ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمعت الوفود عنده: إني متكلم فإذا سكت فكن أنت الذي تدعو إلىبيعة يزيد وتحثني عليها. فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته. فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين أنه لا بد للناس من وال بعد وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصح للدهماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة، والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فوله عهدك واجعله لنا علماً بعد ومفزعاً نلجأ إليه ونسكن في ظله. ثم تكلم غيره بمثل كلامه. فقال معاوية للأحنف بن قيس: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد

في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فإن كنت تعلمه الله وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. كان معاوية يعطي المقارب ويداري

المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعوه. فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه، وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم.

وقد أنذرت إن أغتت النذر .

دونك ما استسقيته فأحسن وذق

وكان أولئك نفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة. فخرج معاوية وقضى بها نسكه، وجمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنت تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسّمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك. فقال ابن الزبير: نخيرك بين ثلاث خصال: قال: أعرضهن: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال معاوية: ليس فيكم مثل أبي بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيه. قال معاوية هل عندكم غير هذا؟ فقالوا لا قال فإني أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك فأصفح فإني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف على رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا ينقضي إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر. ثم

ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام. ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية: أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع فيه الأمة، فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها .

ونقول إن فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وإنه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد الأمر دون الأمة فطلب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه **والذي ينقده التاريخ من أمره هو:**

١. أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة، وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين، لا جرم أن كان من نتائج تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد.
٢. مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة. وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد أن كان ساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التي سنها معاوية، تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة، وتجعل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس. أما رأينا في ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً حتماً لا بد منه لصالح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فإنه كما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة، وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإن الاختلاف لا بد واقع، ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش، فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم، فلو رضي الناس عن

أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين.

٣. **إن أعظم من ينتقد معاوية في وليه ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل علي ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن،** وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقا من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم. والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها بلاد الإسلامية .

٤. **مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين.**

٥. **إن الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة. فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماماً. يأخذ كل إنسان ما له ويعطي ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبته درة عمر. وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجهم عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآزر والتحاب. أما في هذا العهد فإن الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن، فكانت السياسة التي أحكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل إهراق الدماء. ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابي الذي أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال : إن في قتلك صلاحاً لرعية. لا ننكر أن معاوية نسه كان سهلاً لنا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه والواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً.**

٦. **ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلي على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره، وكان يعلم يقيناً أن هذه الأقوال مما**

يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأفون ويتذمرون ولا ندري ما الذي حمله
أن جعل ذلك فرضاً حتماً في كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به؟! !

٧. من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن

تقسم الطرق منازل في كل منزل دواب مهياة معدة لحمل كتب الخليفة إلى

البلدان المختلفة، فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر

مسرعاً حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها
كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال في أسرع وقت يمكن
وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة
بريداً .

وروى ياقوت في (معجم البلدان) أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض
ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءت الرسل سألها عن
سبب بطنها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم
الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون
أذنان الخيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا
علهم في سيرهم. ف قيل بريد أي قطع ف عرب فقيل خيل البريد. وقال ياقوت أنه
روى هذا عن بعض من لا يوثق به. ولكنه صحيح في القياس والنظر.

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين
وإنما اتخذه بعد أن كان من إرادة الخارجي قتله.

اتخذ معاوية ديوان الخاتم. وكان سبب ذلك أنه أمر لعمر وبن الزبير بمائة ألف
درهم وكتب له بذلك إلى زيا. ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع
زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه. فقضاها عنه أخوه عبد الله
بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم.

وكان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهد بالرومية ويظهر
أنه كاتب الخراج، وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجيه سعد

مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ثم أبو إدريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكن لكل ولاية قاض خاص.

بيت معاوية:

١. تزوج ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه.

٢. فاخنة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيراً.

٣. نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها.

٤. كتوة بنت قرظة أخت فاخنة غزا قبرص فماتت معه هناك.

وفاة معاوية:

مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائباً، فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها (يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. **وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر.** فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقفته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين ابن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ، وأما ابن أبي بكر فإن

رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة إلا في النساء واللّهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك **ابن الزبير فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه إرباً إرباً، وأحقن دماء قومك ما استطعت (ثم مات بدمشق لهلال رجب (سنة ٦٠ هـ) (٧ أبريل سنة ٩٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بيته وبين عمله ثم هو الهرج إلى يوم القيامة، فمن كان يريد أن يشهده الله فعنده الأولى وصلى الله عليه وسلم الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد، ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه .**

المحاضرة الثالثة

يزيد بن معاوية

يزيد بن معاوية :

- ترجمته قبل الخلافة .

- خلافته .

- حوادث عصره :

٥ . ١ - وقعة كربلاء ومقتل الحسين .

٦ . ٢ - وقعة الحرة .

٧ . ٣ - حصار مكة .

٨ . ٤ - الفتوحات .

- وفاته .

ترجمة : يزيد بن معاوية

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، **وأمه ميسون بنت بحدل** ولد (سنة ٢٦ هـ) وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فترى في حجر الإمارة ولما شب في خلافة أبيه كان يرشحه للإمارة فولاه الحج مرتين ، وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة **وكان مغرماً بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذا ذاك** ، لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامي بعد .

خلافته :

عهد إليه معاوية بالخلافة من بعده بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس **ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم** . فلما توفي معاوية لم يكن ليزيد هم إلا مبايعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وابن الزبير أخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر . فأما حسين فجاهه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال: أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سرا ولا يجتزى بها مني سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً، فقال له الوليد وكان يحب العافية: انصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إني عائد بالبيت ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه .

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس.

- واقعة كربلاء ومقتل الحسين :

جاء الحسين رضي الله عنه مكة فكان أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي . لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن سرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه ليبايعوه، فكتبوا إليه نحو من (١٥٠ صحيفة) ولما اجتمعت الكتب عنده كتب إليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلي أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره والल्पف، فإن رأى الناس مجتمعين عجل إليه بذلك. فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصاري فأقبلت إليه الشيعة تختلف إليه. ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال: أما بعد، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليماً ناسكاً يحب العافية ثم قال إني لا أقاتل إلا من يقتلني ولا أثب على من لا يثب علي ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فو الله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولولم يكن لي منكم ناصر ولا معين أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل فقام إليه رجل من شيعة بني أمية وقال له إنه لا يصلح ما ترى إلا المغشم إن

هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعززين في معصية الله ونزل.

فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والي المصريين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلى الكوفة وخطب في أهلها فقال: (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاني مصركم وثرركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم والشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأننا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشقيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبه أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلف والشقاق فمن كتبهم إلي برئ ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرفته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرفته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره.

سمع مسلم بمقال ابن زياد فستجار بهائى بن عروة المرادي فأجاره متكرهاً وصارت الشيعة تختلف إليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانى فاستقدم هانئا فقدم عليه.

فقال: يا هانى ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين. جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفي لك. وقد أراد هانى أن ينكر فلم يجد إلى الإنكار سبيلا فطلب منه ابن زياد أن يسلم إليه مسلماً فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر. ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد بايعه ثمانية

عشر ألف وحواله في الدور أربعة آلاف فاجتمع إليه ناس كثير فعباهم وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلاً المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس

عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناسا فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية. ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل في المسجد إلا ثلاثون رجلا فحار في أمره أين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل إليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إني أراك تعجز عن أمانتي فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذي كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جيء بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانيء بن عروة المرادي.

أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلدا فيه عماله وأمرأؤه ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيرا. وجاءه ابن عباس فقال له: قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبّرني ما أنت صانع؟ فقال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عباس: أعيدك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك

ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك، فقال الحسين: فإني أستخير الله وانظر ما يكون. ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال: يا ابن العم إني أتصبر ولا أصبر إني أتخوف عليك في هذه الوجه الهلاك والاستئصال.

إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم، ثم اقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعائك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية. فلم يسمع من الحسين فقال له ابن عباس: فإن كنت سائرا فلا تسر بنساءك وصبيتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ، فلم يفد كلامه شيئا، ثم سار بأهله وأولاده فقابلته بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليه بالله إلا ما انصرف. ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقابلته عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا بن بنت رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله في حرمة العرب. فو الله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً. والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية. فأبى إلا أن يمضي.

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم. فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال: أنشدك الله إلا ما انصرفت فو الله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف، إن هؤلاء الذين

بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطنوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكر فلا أرى إلا أن ترجع.

ولما ترك شراف **قابله خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي** فقال لهم الحسين: أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى فقد جئتم فإني تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلنا منه فلم يجيبوه بشيء في ذلك ثم قال له الحر: إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك، فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كأننا من كان ولكني والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه ثم صار يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة. فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل إلى الحسين رسوياً يسأله ما الذي جاء به فقال الحسين كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذ كرهوني فإني أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد، فإذا قبل ذلك رأينا رأينا، وأن يمنعه هو ومن معه الماء، وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوهم يرجع إلى المكان الذي خرج منه، وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال **وفي عاشر المحرم (سنة ٦١)** انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه. وهم لا يزيدون عن (٨٠) رجلاً ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه، وعدد من قتل اثنان وسبعون رجلاً

وقتل من أصحاب ابن سعد (٨٨) رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوه إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم علي بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال: كنت أرى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، ثم قال لمن معه أتدرون من أين أتى هذا؟ قال أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه، وأحق بهذا الأمر، فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له،

وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، وأما قوله جده خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر، يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ: (قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم يبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وسألتهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن، ثم قرب إليه علي بن الحسين وجهزن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلي: يا بني كاتبني بكل حاجة تكون لك.

لقد ظن الحسين رضي الله عنه بأهل العراق خيرا وهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيرا منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم، أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمرأؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد. وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه هل كان إلا من أهل العراق وخدمهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب. لقد طلب الحسين رضي الله عنه أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يوجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ويزيد من نار العداوة تأجيجاً وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبر وهي

أنه لا ينبغي لمن يريد عظام الأمور أن يسير إليها وبغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف.

- وقعة الحرة :

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي في نظرنا أدهى وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الإلهي وهي التي حرّمها عليه السلام كما حرم إبراهيم مكة. فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة إحداهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى، فكيف بانتهاك حرمتها معاً في سنة واحدة؟

أما حادثة المدينة فإنه في عهد إمارة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشرف أهل المدينة فيهم عبد الله ابن حنظلة الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير وغيرهم. ولما قاموا على يزيد أكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عبداً سيداً مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا خلعه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به ، وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري ، وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفاً وقال له

يزيد ادع القوم ثلاث فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت عليه فأبجها ثلاث فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرا فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه. وسار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بن أمية ولم يفكوا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم أن لا يبيغوهم عائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى ثم دخل عليه عبد الملك ابن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من ثمره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار

ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق ببيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم. ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني.

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا المحل الذي بمكة وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم. فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جدا ولكن انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم، فمن امتنع

عن ذلك قتله. ثم أتى بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه البيعة وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة (سنة ٦٣).

وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليه من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية. إنهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعلتهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيرا لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين وبعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثا احتراما لرسول الله ﷺ هذا وإنا نعوذ بالله من الرؤوس التي إذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل.

- حصار مكة:

ولما انتهى مسلم من أمر المدينة سار قاصدا مكة لحرب عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، لكن المنية أدركت مسلما بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير السكوني كما أمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم (سنة ٦٤) وقد بايع أهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمنع البيت، فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حربا انكشف فيها أصحابه فسار راجعا إلى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله. حتى إذا مضت ثلاث أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال. هذه

ثلاث فتن كبرى داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعاتها بل إن الذي يتحملة جزء صغير منها لأنه بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما ترى فعل ما فعل وإنما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لها النصر

- الفتوحات :

استعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك، فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً من الذراري والأموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهمزوا عنه ودخل المنهمزون المدينة فحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصدها مدینتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم. ثم رحل إلى تاهرت، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقية بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه. ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقية البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة، ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار **بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات. فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.** ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفاً منه. ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه

بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهودا لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي مهاجر فلما جاء عقبة وأساء إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل أخاف عليك منه. فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه، وقصد عقبة فقال له أبو مهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة ففتحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوه، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبا المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة عليهما فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وأمن من فيها من أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين واستولى على إفريقية. وسنبين ما كان من أمره بعد.

- وفاة يزيد:

لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول (سنة ٦٤) (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما.

بيت يزيد:

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد، ويكنى أبا هاشم. وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعتبة، وحرب، وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى.

المحاضرة الرابعة

عناصر المحاضرة :

- الخلافة بعد يزيد بن معاوية :

معاوية الثاني .

عبد الله بن الزبير .

مروان بن الحكم .

عبد الملك بن مروان

الخلافة بعد يزيد بن معاوية :

بعد موت يزيد كانت هناك بيعتان: إحداهما بالشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير.

فأما معاوية فكانت سنة إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت سنة مثل سنة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته.

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه القدرة على لم شعثها وإصلاح أمرها.

عبد الله بن الزبير:

أما ابن الزبير فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصر له. وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناده علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه. ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له: أنت أحق لهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم أخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عيك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم، فقال له: أنا لا أهدر الدماء والله لا أَرْضَى أن أقتل فقال له الحصين: قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سرّاً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة، وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة، ثم فارقه ورحل إلى المدينة فإلشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد.

أما العراق فإن عبيد الله ابن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال: يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم وما يحصي ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف، وما كان يحصي ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم وإن يزيد قد توفي واختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناءً وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاخترتوا لأنفسكم ما ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتموه فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضى حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم. فقالوا له: قد سمعنا مقاتلتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون: أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه. ولما علم أهل البصرة بابائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابته إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بمسعود بن عمرو سيد الأزدي فأجاره حتى هرب إلى الشام. واختار أهل البصرة واليا عليهم عبد الله بن الحارث بن نوفل فبايعوه وذلك كان أول جمادى الآخرة (سنة ٦٤) وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصريين إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده. وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام.

حال الشام :

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم، وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعو له وأمير حمص النعمان ابن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له **وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبى وهواه في بني أمية** وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالد ابن يزيد لأنهم قالوا: إنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بسلام. فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتابا آخر سلمه لرسوله وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلا فقم واقرأه عليهم. فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: صدق حسان وقدم غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم الضحاك فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو إلى ابن الزبير وكتب تدعو إلى بني أمية .

مروان بن الحكم :

خرج الضحاك بمجموعة فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه ثلاث خلون من ذي القعدة (سنة ٦٤).

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية إلى مرج راهط وبها الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون **وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين لية في مرج راهط. وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موضع قط وكانت الواقعة في المحرم (سنة ٦٥)،**

ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه. ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليهم وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان تطلبه فقال الشابان لزفر: انج بنفسك فإننا نحن نقتل فمضى وتركها فقتلا، ولما **تم الأمر لمروان بالشام** سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها.

لم تطل مدة مروان في سلطانه فإنه توفي في رمضان (سنة ٦٥) وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز .

ترجمة مروان:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كابتناً له ومدبراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبيد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولي أمر الأمة من بعده ابنه.

عبد الملك بن مروان :

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد (سنة ٢٦ هـ) بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية. ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرب بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي: ما ذكرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه. وكانت الحال في البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب. فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير. وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهل ثلاث فرق: زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته، وشيعة تدعوا إلى آل البيت، وخوارج .

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فإذا فزع من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق.

فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قاتله. وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سرا إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا (

سنة ٦٥) فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحو من ستة آلاف .

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الأول (سنة ٦٦) فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعما أنه هو الذي أرسله للأخذ بثأر الحسين ولقبه بالإمام المهدي.

وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجوه وكان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الأمر فقالوا له: إن المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت. ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر) فقال إبراهيم: قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلي فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه، قال المختار: ذاك زمان وهذا زمان قال ابن الأشتر: فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وباعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي بيناه، ولما حان الموعد وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يا لثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحليين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذي أرسله بعد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبياعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه، ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل إليه بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمر ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها ثم إن المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند إلى البلاد الجزرية .

بعد أن تم الأمر للمختار ولى الأمر ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين). وأشار نحو الشام (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض) وأشار نحو الحجاز (ونري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة: وقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبتم نفسي بالجزار.

وجاءه وهو بالبصرة أشرف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجدد مصعب جندا عظيما قاده بنفسه ومعه أشرف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جندا قاتل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبورا.

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق. ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال: قاتل الله كثير عزة .

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعبا فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم بن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن. وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة. فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له.

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصريين عمالا من قبله.

وبذلك لم يبق خارجا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندا إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه في جمادى الأولى (سنة ٧٢) فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق.

ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج. وكان ممن فارقه ابنه حمزة وحبیب. ولما رأى ابن الزبير أنه له يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئاً دخل أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أمه خذني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما أريك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعوا فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن كنت على حق دون أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ! فقال :

يا أمه أخاف إن قتلتني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به دأباً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وإن تستحل حرماته ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتن بصيرة فانظري يا أمه فإني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله فإن ابنك لم يتعهد إثارة منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعهد ظالم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني فقالت أمه: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك فقال: جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي قالت: لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج حتى قتل وكانت سنة ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك.

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بويح له (سنة ٦٤) وبقتل ابن الزبير

صفا الأمر لعبد الملك في جميع الأمصار الإسلامية، واجتمعت عليه الكلمة. وبقي الحجاج واليا على مكة والمدينة حتى (سنة ٧٥) وفيها عزله عبد الملك عنهما و ولاه العراقيين فسار إلى الكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو مثلثم بعمامة خز حمراء فاجتمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه، يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

إني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغمار التين ولقد قررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق مع المهلب بي أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئا فقال الحجاج: اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال: أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا هذا أدب ابن نهيمة أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن. اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد في المسجد إلا قال: على أمير المؤمنين السلام، ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبرا فقال: أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني فتقبله بدلا عني فقال الحجاج: نفعل أيها الشيخ فلما ولي قال قائل: أتدري من هذا أيها الأمير قال: لا، قال: هذا عمير بن ضابئ البرجمي. ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال: رده فلما رد قال: أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار إن في قتلك أيها الشيخ صلاحا للمسلمين؟ يا حרسي اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده.

من هذه الخطبة وما تلاها نتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العصف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة إصلاحا حقيقيا أبدا وإنما تضع على المرء غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به. وتتبين حال أهل العراق وسكونهم إلى هذه الذلة. يجيئهم الحجاج في بعضة عشر راكبا وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فظهر مما سنقصه عليكم أن الخضوع وقتي .

وبعد ذلك ذهب إلى البصرة فخطب بها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتي برجال يشكري فقال: أيها الأمير إن بي فتقا وقد رآه بشر بن مروان فعذرتني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتى نزل رستفابان أول شعبان (سنة ٧٥) ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب (١٨) فرسخا فقام في الناس فقال: إن الزيادة التي زادكم بها ابن الزبير في أعطياتكم لست أجزها فقام إليه عبد الله بن الجارود العبدي وقال: إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف إلى البصرة.

وفي (سنة ٨٩) ولى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجا وربما امتنع فلم يفعل. فبعث الحجاج إلى ابن أبي بكرة يأمر بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز إليهم جندا كثيفا فجهز عشرين ألفا من البصرة ومثلهم من الكوفة.

وجد في ذلك أثمر وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض ولا يرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معاونته. ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم

عبد الرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال: أيها الناس إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أختياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا إلى معسكركم فمسكروا به مع الناس .

فمسكروا الناس في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلدا بعث إليه عاملا وبعث معه أعوانا ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالحي بكل مكان مخوف حتى إذا حاز أرضا عظيمة وملا يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول في أرض رتبيل وقال: نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ثم لم نزل

ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذرائعهم في أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله. وكتب إلى الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج: أما بعد فإن كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المواعدة قد صانع عدوا قليلا قليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في الإسلام عظيما. لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين إنني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأي مكيدة ولكني رأيت أنه لم يحمك عليه إلا ضعفك والتيث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذرائعهم. وقال في كتاب آخر: إن لم تفعل فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وما وليته. فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيضي أم يخالف؟ فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث إلى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان إلى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق .

ولما دخل الناس قال بعضهم لبعض: إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلال وجهاد المحليين، ولما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة. فلما اجتمعت الجنود إليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى (سنة ٨١). وأتت الحجاج الهزيمة فأنصرف راجعا حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها في آخر ذي الحجة (٨١) ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثا على ركبتيه وأنقض نحوا من شبر من سيفه وقال: لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر. فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل قرى وخرج ابن الأشعث حتى نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم. فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضوا ذلك على أهل العراق فإن قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان

محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الناس. فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإن أمرنا أن نسمع لك ونطيع. ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادى الآخر (سنة ٨٣) ففيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم أتباعهم ونادى المنادي من رجع فهو آمن .

وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبائعونه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله . وجاءه رجل فقال للحجاج: إني أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال: أخادعي أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودي بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي ففيه العراق فذكره الحجاج يوما ف قيل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبي فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقا والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا وإن عفوت فبحلمك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماننا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف فلما مشى ناداه ثم قال له: كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا: فقال: أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناح واستحلتست الخوف فقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمر خالفا. قال: انصرف يا شعبي وحيء إليه بأعشى همدان فقال: إيه يا عدو الله أنشدني قولك بين الأشج وبين قيس باذح قال: بل أنشدك ما قتلته فيك ثم أنشده قصيدة.

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيه أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم .

أما ابن الأشعث، فقد تقلبت به الأحوال وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثا به، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل، فأراد رتبيل أن يرسله، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى بنفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بعضه عشر رجلا من أقاربه. وأرسل بالرووس إلى الحجاج.

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة (٦٤ إلى سنة ٨٦) وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضا. كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون الله في أمتهم عهدا كأنهم لم يقرأوا كتاب الله ولم يعملوا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا نخلي ولأه أمرها من تبعه تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة إكراها من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه.

من الضروري أن نقص عليكم شيئا من أخبار الخوارج في هذه المدة، لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم في ذلك العهد .

المحاضرة الخامسة

المحاضرة الخامسة

الخوارج :

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم؟ فلما جاءوه وعرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم. ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده. فدخلوا عليه فقالوا: إنا جنناك لنختبر رأيك ما تقول في الشيخين، قال: خيرا؛ قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا عليها وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجنا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة. فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته: خذلك الله وانتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إن الله أمر، وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما في فرعون (فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات) فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجاد في المحاربة والمتبغض إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك

ذنباً. وقد كان ييغنيكم عن هذا القول الذي سميتم في طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبب أبي وأنت تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن في أبويه: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) .

قال جل ثناؤه: (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده وليس يقتعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح المنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلي من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه. فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب على كل ما يعتد به عليهما. فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة لليمامة فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق في أصحابه وقد أمره عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً ويناظروهم الناس. وطردها عمال السلطان عنها وجبوا الفياء ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهر من نافع بن الأزرق القول بكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال: الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم من جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل. ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات. وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله بن أباض المري. أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون: إن عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه

وسلم فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفار النعم. وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر العقد حتى صار عامتهم قعدا، وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبد الله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة، وأما أبو بيهس فإنه قال: أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم، وزعم أن مناكحتهم ومواريتهم تجوز، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين. وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية: أصحاب نافع بن الأزرق، وأباضية أصحاب بن أباض، وبيهسية أصحاب أبي بيهس، وصفرية. وكفر بعضهم بعض.

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يتعرض الناس ويقتل الأطفال. فإذا أجيب لمقاتله جبي الخراج ونشر عماله في السواد. فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فقالوا: ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى. فقال الأحنف: إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم. فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريض وكان دينا شجاعا فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب. هناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عبيس نافع بن الأزرق. فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغدائي وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بني يربوع فاقتتلوا قتلا شديدا نيفا وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميري، فلم يزل يقاتل الخوارج

بدولاب والخوراج أعدوا بآلات الدروع والجواشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم بعضا وملوا القتال، فإنهم لمتوافقون متحاجزون حتى جازت الخوراج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب فقاتل من ورائهم في حماهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل الناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز.

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوراج إلا المهلب ابن أبي صفرة. فعرضوا عليه ذلك فرضي بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوي به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب أجابوه إلى ما شرط فانتخب الناس وسار إليهم وكانوا قد قربوا من البصرة. فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلى وسلبرى. فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوراج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه. فإن ذلك قواهم بجنوده حتى قتل أمير الخوراج عبيد بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير : إنا قد لقينا الأزارقة المارقة بحد وجد .

فكانت للناس جولة ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا درئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام. فكتب إليه الحارث: قد قرأت كتابك يا أبا الأزدي فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا، وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة والرياسة، فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه

والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال: أما تظنونه يعرفني إلا بأخي الأزدي؟ ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبد الله ولما ولي مصعب العراق استقدم المهلب وأمر أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولي مصعب المهلب على الموصل وولى حرب الخوارج عمر بن عبد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن علي السليطي فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا ثم أتوا سابور فسار إليهم ونزل قريبا منهم . وفي ذات لية بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء !! فقال: قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال: أما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفي هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي الحجاز بعيد الدار خير لغيرنا فتقاتلون معي تعذيراً. ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالاً شديداً حتى انهزموا وقتل في الواقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب أما بعد فإني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذراً مذبذباً وبلغتني عنهم عودة فيممتهم وبالله أستعين وعليه أتوكل. ثم سار إليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فحمل عليهم حتى أخرجهم يروحون ويغدون ويعيثون في الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطري بن الفجاءة المازني فخرج إليهم المهلب ولما أحس به قطري يمم نحو كرمان فأقام المهلب بالأهواز، ولما استعد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد الملك .

فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون في مصعب؟ قالوا: إمام هدى قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: ضال مضل. ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب؟ فسكتوا، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: إمام هدى فقال الخوارج: يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله.

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له: إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار إليهم حتى قابلهم بدار بجرى فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبد الملك به فكتب إليه عبد الملك أما بعد: فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه عامل لك على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعت أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز. قد بعثت إلى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضر المهلب وتستشيره فيه إن شاء الله. فشق عليه أن لم يقبل رأيه في بعثه أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال: أحضر المهلب واستشره فيه. وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود، فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد

بن الأشعث. وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ما لهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامة وأتبعهم خالد بن داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الأهواز .

وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطري الأهواز وأمر أبي فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبي فديك فانهزم.

ولما رأى عبد الملك ذلك عزل خالدًا وولى أخاه بشرا مكانه وكتب إليه: أما بعد فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة ولينتخب من أهل مصره وجوهم أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثا كثيفا وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا حسيبا صليبا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض إليهم أهل المصريين فليتبعوهم وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك. فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمر أن ينتخب من يشاء. وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له: إنك قد عرفت منزلتك مني وأثرتك عندي وقد رأيت أن ظني بك، انظر إلى هذا الكذا والكذا يقع من المهلب فاستبد عليه الأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا وتنقصه وقصر به. فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء وممن يستصبي ويستجهل. وهكذا في كل مكان

وزمان وفي كل أمة من يدوس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة ولا تهمة الأمة سعدت أو شقيت. رجل يكره رجلا فما بال مصالح الناس عامة المسلمين تكون ميدان الانتقام. إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه. خرج الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فترأى العسكران ولم يلبث الناس إلا عشرا حتى بلغهم نعي بشر بن مروان وتوفي بالبصرة فرفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة. فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد أمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة ووسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم الأسد الهصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذا عنيفا ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة .

فلما تتابع مسيرة الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان. كان المهلب يخندق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور فقاتلهم نحو من سنة.

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديدا وكانت كرمان في أيدي الخوارج وفارس في أيدي المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به لا يأتيهم من فارس مدد فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديدا أزاحهم عن فارس كلها. فبعث إليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتابا يقول فيه: أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة وكأنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك؛ وقد بعثت إليك

البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والغل والأباطيل والأمور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام. فأخرج المهلب بنيه كل ابن في كتيبة فأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ثم انصرفوا. فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال له: لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس. أنت واله لمعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم فقاتلوهم كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهرا لا يقدر منهم على شيء. .

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حسابان. ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصا. فقال لهم: ما أرى أن أفعل. رجل تأول فأخطأ التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوي الفضل منكم والسابقة فيكم. فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريا وولوا عبد ربه الكبير. وبقي على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضا. كان من رأي الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأي المهلب فتركه الحجاج ورأيه. استمر الخوارج يقتتلون نحو من شهر ثم إن قطريا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وباع عامتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين.

وهي من غرر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له:
أشاعر أنت أم خطيب؟ قال: كلاهما فقال له: أخبرني عن بني المهلب قال
المغيرة: فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارسا شجاعا وجوادهم وسخيهم
قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك و عبد الملك سم نافع
وحبيب موت زعاف وحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال: فكيف
خلفت جماعة الناس؟ قال: بخير أدركوا ما ملوا وأمنوا ما خافوا قال:
فكيف بنو المهلب فيكم؟ قال كانوا حماة السرح نهارا فإذا أليلوا ففرسان
البيات قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين
طرفها قال: فكيف كنتم وعدوكم؟ قال: كنا إذ أخذنا عفونا وإذا أخذوا
يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج: إن العاقبة
للمتقين كيف أفلتكم قطري؟ قال: كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى
الذي يحب، قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: كان الحد عندنا آثر من الفل قال:
فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟ قال: كان لنا منه شفقة الوالد وله منابر
الولد قال: فكيف اغتباط الناس؟ قال: فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال:
أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال لا يعلم الغيب إلا الله فقال: هكذا تكون
والله الرجال. المهلب كان أعلم بك حيث وجهك. وكان كتاب المهلب إلى
الحجاج: الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه الذي حكم بأن لا ينقطع
المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده. أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد
بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى
ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة في وقت
إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم يزل كذلك حتى
بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
العالمين).

فكتب إليه الحجاج: أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيرا وأراهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فإذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهما من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علي وعجل القدوم إن شاء الله. فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال: يا بني إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك؛ فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئا فوجهه إليه وتفضل على قومك. ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه وأظهر إكرامه وبره وقال يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب. فقام إليه رجل قال: أصلح الله الأمير والله لكأني أسمع قطريا وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادي ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سرورا فقال المهلب: إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمع الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيرا مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج: اذكر لي القوم الذي أبلوا وصف لي بلاءهم. فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب: ما ذخركم الله لكم خير من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في العناء وقد بنيه وقال: إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم. قال الحجاج: صدقت وما أنت أعلم بهم مني وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله. ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة واشباهه، فقال الحجاج: أين الوقاد؟ فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب: هذا فارس العرب فقال الوقاد: أيها الأمير كانت أقاتل مع غير

المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرسانا. فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم، وزاد ولد المهلب ألفين، وفعل بالوقاد وجماعته شبيهاً بذلك قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب. وقد أرسلت بعد ذلك جنوداً لتتبع قطري فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله فقتل. ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم في قصر قومه حتى جاهدوا ثم خرجوا فقاتلوه حتى قتلوا كان ذلك (سنة ٧٧). وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة.

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمي ورفيقه شبيب بن يزيد. كان صالح رجلاً ناسكاً مخبئاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بداراً من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم: ما أدري ما تنتظرون حتى متى أنتم مقيمون؟ هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد حدة الولاية على الناس إلا علوا وعتوا وتباعدا عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا إلي إخوانكم الذي يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج وقدموا عليه فاتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الأربعاء (سنة ٧٧). وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم ينصبون لكم. فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حين انتهكت محارمه وعصى في الأرض

فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملوا بها فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون. ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجان فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث إليهم جندا عدتهم ألف رجل. فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جندا عدته ثلاثة آلاف فأزاحوا جندا عدته ثلاثة آلاف، فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن. وما زالوا ينتقلون عدد لا يتجاوز المائتين عددا. وأخيرا جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فسادا وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد. ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة فسارت الجنود وراءه لكنها لم تتل منه منالا وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب إليه أن يرسل إليه جندا من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج إليهم نحو من خمسين ألفا من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفا ومن الغريب أن الآف هزمت الخمسين ألفا. وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجدا فخرج إليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم: يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقمم غضوا الأبصار واجثوا على الركب واستقبلوا القوم باطراف الأسنة.

فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل إليهم شبيب في تعبئة فثبتوا له حتى إذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدما وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل في

هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزاة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب في النهر وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة .

بناء الكعبة:

من الحوادث التي حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبنائها ففي سنة (٦٥) هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثيوب أو طيب عند الحجة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها. وكان سبب في إدخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين. فلما قتل ابن الزبير وولي الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كان عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج .

الاحوال الخارجية

الفتوح في الشرق:

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج، وولاه الحجاج خراسان ففي (سنة ٨٠) قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوه معه ابنه فنزل في عسكره. وكان الملك يومئذ واسمه السبل في عسكره على ناحية. فبيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوا على الغدر حين اعتزل عسكرهم فأمر الملك وقتله في قلعته فأتى يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها إليه ورجع إلى المهلب فوجه ابنه حبيبا إلى ربنحن فوافي صاحب بخاري في أربعين ألفا فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب.

ومكث المهلب بكس سنتين فقبل له: لو تقدمت إلى السند وما وراء ذلك قال: ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين. ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة خليفته على مرو فجزع جزعا شديدا وولي مكانه ابنه يزيد ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفي بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال: أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا: لا قال: أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا: نعم قال: فكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسى في الأجل وتثري المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطعية فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم إن بني الأم يختلفون فكيف العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فإني أحب الرجل ورواحه إليكم تذكره له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده.

عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد الله وإن لم يظفر يعد الأناة قيل: ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم. وقد استخلفت عليكم يزيداً وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقدمناه. ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصلى عليه. وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف الهلب إياه فأقره وتوفي في ذي الحجة (سنة ٨٣) .

وفي ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قد خرج عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ويرحل عنها بعياله. وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن يعمر العدواني ونص كتابه (وإنا لقينا العدو فمحننا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرونا طائفة ولحقت طائفة برووس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار). فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عن يكتب ليزيد فقيل له يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له: أين ولدت؟ قال: بالأهواز قال: فهذه الفصاحة؟ قال حفظت كلام أبي وكان فصيحاً. قال: فأخبرني هل يلحن عنبسة ابن سعيد: قال: نعم كثير. قال: ففلان قال: نعم قال: أخبرني عني ألحن؟ قال: نعم تلحن لحنا خفيفاً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع أن وإن في موضع أن. قال أجلتك ثلاثاً فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك .

فرجع إلى خراسان وفي (سنة ٨٥) عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل. وفي عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر ولم يكن للمفضل بيت مال بال كان يعطى الناس كلما جاءه شئ وإن غنم شيئاً قسمه بينهم. ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وسيكون له ذكر جميل في خلافة الوليد.

الفتوح في الشمال:

لم يكن من الممكن في عد الاضطراب الشديد أن يكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين. وفي (سنة ٨٠) ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدي عبد الملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين ولما انقضت هذه السحابة واستقر الأمر لعبد الملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية. وفي سنة (٨١) فتحت قالقيا وكان أمير جندها عبيد الله بن عبد الله. وفي (سنة ٨٤) عزى عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة.

الحج:

كان الذي يقيم الحج عبد الله بن الزبير في عهد خلافته وفي (سنة ٦٨) وافت عرفات أربعة ألوية: ابن الحنفية في أصحابه في لواء، وابن الزبير في لواء، ونجده الحرورى في لواء، ولواء بني أمية. قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعا فجننت محمد بن علي في الشعب فقلت: يا أبا القاسم اتق الله فإننا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا

البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال: والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من قبلي ولكنى رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم منى وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن انت ابن الزبير فكلمه و عليك النجدة قال: فجئت ابن الزبير وكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال: أنا رجل قد اجتمع على الناس وباعوني وهؤلاء أهلا خلاف، فقلت: أرى لك خيرا الكف قال: أفعل. ثم جئت نجده الحرورى فأجده في أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال: أما أن أبتدئ أحدا بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت: فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك. ثم جئت شيعة بني أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا: نحن على أن لا نقاتل أحدا إلا إن قاتلنا، ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس. هذه حادثة غريبة في تاريخ الحج. وبعد قتله كان يقيمه عمال بني أمية .

السكة الإسلامية:

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت (سنة ٨٤) من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطا والدينار عشرين قيراطا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها بالعراق

وقد نقش عليها أولا باسم الله ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة. وكانت له دار ضرب جمع فيها الطبايعين. فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخالصة الزيوف والستوفة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة وسنوضح أمر السكة بعد .

ولاية العهد:

كان مروان قد ولي عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان.
ففي (سنة ٨٥) أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولى مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال: لو خلعت ما انتطح فيه عنزان. فبينما هو على ذلك إذ جاء الخبر وفاة عبد العزيز فقال لروح: كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد ابن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على ما فعل ويقول: سعيد والله أحوج أن تصل رحمة من أن تضربه وأنا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف .

وفاة عبد الملك:

في يوم الخميس منتصف شوال (٨٦) (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام إحدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا من مستهل رمضان (سنة ٦٥) إلى منتصف شوال (سنة ٨٦) وكان خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة

سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في (١٧) جمادى الأولى (سنة ٧٣) وكان عمر عبد الملك ستين سنة لأنه ولد سنة (٢٦) .

صفة عبد الملك:

كان عبد الملك قوي العزيمة ثابت النفس لا تزعجه الشدائد، ولى أمر الأمة في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لأبنه الوليد وهي على غاية من الهدوء والطمأنينة ولكن الضحايا التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جدا لأن الأمة حية ونشيطة لا تدين للقوة القاهرة التي هي فوق طاقتها ولأهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقا لا يمر منه إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول: ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا. ومما عد من مساوئ عبد الملك أنه قال مرة وهو على المنبر: من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه. وقد اعتذر عن ذلك بأن كثير من الناس كانوا يقفون في هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم من جراء ذلك شر شهبوا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء، ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذرا. ومما عد من مساويه وهو قبيح غدره بعمر بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه. وقالوا إنه أول غدر حصل في الإسلام ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة.

والتاريخ يدلنا على أن كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة.

وكان عبد الملك فصيحا عالما بالأخبار فقيها وقد قدمنا شيئا من ذلك في
أول خلافته.

المحاضرة السادسة

خلافة الوليد بن عبد الملك

(٩٦ هـ - ٩٩ هـ) ربما خطأ لأنه ذكر بأخر المحاضرة توفي ٩٦ هـ

عناصر المحاضرة

- ترجمة لشخصية الخليفة

- الإصلاحات الداخلية

- الفتوحات

- وفاة الحجاج

- ولاية العهد

- وفاة الوليد

ترجمة لشخصية الخليفة :

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي. (ولد سنة ٥٠ من الهجرة) ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك ببيع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه. لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على المنبر دمشق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس إنه لا مقدم لما أقر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضايا الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملته عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه

الأمة بالذي يحق عليه اله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزا ولا مفرطا. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه. ثم قام إليه الناس فبايعوه.

الإصلاحات الداخلية :

كانت مدة الوليد غرة في حبين الدولة الأموية ففيها قام إصلاح داخلي عظيم، واشتهر في الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الأمم المجاورة لها. وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الأمور ومهدا فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبث النار الأهواء فإن الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم، فلم يحركوا ساكنا، ولم يوقظوا فتنة.

تابع : الإصلاحات الداخلية :

كان الوليد ميالا إلى العمارة فاهتم في زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره. ففي (سنة ٨٨) كتب إلى عاملة بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة

التي يستقى منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها. وإصلاح الطرق من أجم ما يذكر لولاية الأمر في إصلاح البلاد. ومن أعماله العظيمة بناء دينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق: ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد وأن يشتري دورا في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكن مائتي ذراع في مثلها ومن أبي فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليهم ثمنها (فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان) وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام. فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه في فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل وبعث إليه من الفسيقساء بأربعين جملا فابتدئ بعمارته وأدخلت في جميع الحجر التي لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة. وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقباله فصار شكل الحجرة خمسا. أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالا عظيما حتى خرج مناسبا لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهدا بتلك العظمة

وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا. وبنا الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء.

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجنومين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضريراً قائداً.

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته، ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج (سنة ٩١) وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بناءه، فأخرج الناس من فما ترك فيه أحد، وبقي سعيد ابن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرج به وما عليه إلا ريطان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له: لو قمت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذي كان يقوم فيه، فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة، فقال: من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب؟ فجعل عمر يقول: نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد: قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه. فدار في المسجد حتى وقف على المنير ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فلم يتحرك سعيد ولم يرقم فقال: بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ قال الوليد: خير

والحمد لله، فاتصرف وهو يقول لعمر: هذه بقية الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين. وقيل من ذوي السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الأسنان حقهم. وسبب ذلك فيما نزن من قبل العلماء كثيرا ومن قبل ذوى السلطان قليلا. أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم. وأما ذوو السلطان فإنهم أحيانا يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم فوق كلمتهم فيتجهموا لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرفهم واجبا فيحاربونهم لقصد إذلالهم وحط درجتهم، ولكن الذي يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحته فإنه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك .

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبد العزيز الذي أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح. فقد ولاه المدينة (سنة ٨٧هـ فلما قدمها دعا عشرة من فقهاء المدينة فيهم عروة بن الزبير وعبد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وإذ ذاك هم سادة فقهاء الدنيا. فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج الله على

من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يجزونه خيرا وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدنية (سنة ٩٣ هـ) بسبب شكوى الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن. واستشاره فيمن يوليه على المدنية فأشار بعثمان بن حيان المرى فولاه .

الفتوحات :

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر في الفتح الإسلامي وهم:

محمد بن القاسم بن محمد الثقفي.

قتيبة بن مسلم الباهلي.

موسى بن نصير.

مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

فأما القاسم بن محمد

فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه. فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل فنزل عليه وكان به بد عظيم. والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم

بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة. ولم يزل القاسم حاصرا للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلايم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى مسجدا وأنزلها أربعة آلاف. ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوقة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمينين إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران فاتاه سمين سريبدس فصالحوه على من خلفهم ووف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته. ثم إن محمدا عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بداهر في جنوده الكثيرة، وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع. وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون.

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند. ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباد العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملا، ثم سار فتلقيه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى يسمد فصالح أهلها على صلح ساوندرى. ثم انتهى إلى الروم وهي من مدائن السند فحصر أهلا ثم فتحها صلحا على أن لا يقتلهم ولا يعرض

لبداهم، وقال: ما البد إلا ككنائس النصارى، واليهود، وبيوت نيران
المجوس .

ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجدا. ثم سار حتى قطع نهر
بباس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدنية
وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيرا منهم وأصاب فيها مغانم
كثيرة وافرة. وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال وتندر له النذور
ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده
فحاز محمد ذلك كله. وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن
الملتان إلى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى
البيلمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمة أهل سرست ثم
أتى الكرج فخرج إليه دهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دهر. بعد
هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند
مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة
حياته.

وأما قتيبة بن مسلم

فكان أميرا على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد

المفضل بن المهلب (سنة ٨٦) فلما قدمها خطب الناس وقال لهم:

إن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد
بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم
النصرة بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: (هو الذي أرسل رسوله

بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطنًا يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمال صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتجزوا موعود وبكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهويناء .

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو. فملا كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال، ودعا إلى بلاده فمضى مع الصغانيان فسلم إليه بلاده. وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضى ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب إليه غزوت فكن في مقدم الناس وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقاتهم.

في (سنة ٨٧) قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان في يد نيزك أسى من المسلمين. فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويتهدده، فخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك. فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها.

وبعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر. فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين. وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبه وعدوه. وذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة بهدمها سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أميرا وسار عنهم. فلما كان خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو.

ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة م الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكت وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف إليه الترك

معهم الصغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم قتالا شديدا أبلى فيه نيزك بلاء حسنا وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو.

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقبته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وائتها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو (سنة ٩٠) فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم، ولكن قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصورها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب الناس وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشر فقال قتيبة: من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى إلى بني تميم وقال لهم: يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال: يا بني تميم أتسلمونني اليوم قالوا: لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بن تميم فقال وكيع: أقدم يا هزيم ودفع إليه الراية وقال:

قد خليك فتقدم هزيم ودب وكيع في الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع: أقتحم يا هزيم فنظر إليه هزيم نظر الجمال الصؤول وقال: أنا أقحم خيلي هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها والله إنك لأحمق فقال وكيع مغضبا: أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه قال: ما بعد أشد منه وعبر هزيم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقتطر النهر وقال لأصحابه: من وكن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه (٨٠٠) راجل فذب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال لهزيم: إني مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس: شدوا فحملوا فما تثنوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حذروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه.

ولما تم فتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها.

وفي (سنة ٩٣) فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهي مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدا وصلّى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم.

ثم ارتحل قتيبة راجعا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جندا كثيفا وآله من آلات الحرب كثيرة. ثم انصرف إلى مرو فأقام بها.

وفي (سنة ٩٤) عزا قتيبة شاشا وفرغانة حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتلا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي (سنة ٩٦) افتتح مدينة كاشغر وهي أدنى مدائن الصين سار إليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعه ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها. وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل إليه قتيبة وفدا عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم: قولوا لقتيبة ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليهم من يهلككم ويهلكه، فقال له هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه. قال: فما الذي يرضى صاحبك، قال: إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختف ملوكم ويعطى الجزية. قال: فإننا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوئه ونبعث ببعض أبنائنا فيختتمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من ملوكم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا

على قتيبة فقبل الجزية وختن الغلطة وردد لهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو .

هكذا فتح هذا القائد تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم. كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته.

وأما موسى بن نصير

فإنه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام في قارة أوروبا.

وأما مسلمة بن عبد الملك

فإن عزمته ظهرت في حروب الروم فكان كل سنة يسير بالجنود فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك. ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وهرقلة وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم.

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه في حق أخيه عبد العزيز. وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتوليه عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز. فكتب إليه فاعتل. فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك. ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سلميان والحجاج ومن على رأيه.

وفاة الحجاج

في شوال (سنة ٩٥) توفي بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين وما بينهما من المشرق كله وكانت (سنة ٥٤) ، واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة على خراجهما يزيد ابن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقيين عشرين سنة.

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات. فإن فعل أحد شيئا من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت بم يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على

وجوهم. وكان الحجاج من القسم الأول فسعف بأهل العراق وأذل
عظماؤهم حتى لم يكن عندهم امتناع، أسرف في التقل والجور
لتأييد لسلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره إلى السلطان
القاهر والكلمة التي لا ترد. قال له عبد الملك يوما: كل امرئ يعرف
عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبئ عني شيئا. قال: أنا لجوج حقود
حسود. ومتى كانت هذه الصفات في ذي سلطان أهلك الحرث
والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج.

ولم يكن الحجج خاليا من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة
الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شرا عظيما، وكان فصيحاً لا
يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمانه وكانوا يقرنون به
الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه والمعدودين. وعلى
الجملة فإن الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك
أرواحا كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل
جداً.

وأنا كما علمتم لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا
أعدها إصلاحاً حقيقياً وإنما هي طريقة إذلال وإخضاع لا يدوم أثرها
كثيراً لأن النفوس تنطوي على ما فيها من البغض والكراهة حتى
إذا حانت لها الفرصة وثبت .

وفاة الوليد بن عبد الملك

في منتصف جمادى الآخرة (سنة ٩٦) توفي بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦ وكانت سنة إذ توفي ستا وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابنا.

المحاضرة السابعة

خلافة سليمان بن عبد الملك

(٩٦ هـ - ٩٩ هـ)

عناصر المحاضرة

ال خليفة وقادة الفتوحات الثلاثة :

سليمان بن عبد الملك بن مروان (ولد سنة ٥٤) من الهجرة. وأمه هي ولادة بنت جزء العبسي .

بويح بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين، وكانت لأول عهده أحداث خير وشر.

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد. **فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولي يزيد بن أبي كبشة السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق.**

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلوه وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتناسى ما فعله ذلك القائد عظيم الأعمال. ولا ندري كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك.

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتوليه ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج فلما ولي سليمان قلق منه قتيبة وخاف أن يولي خراسان يزيد بن المهلب، فكتب إليه كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب كتابا ثانيا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم. ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه ،

وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له: ادفع الكتاب الأول، فإن كان يزيد بن المهلب حاضرا فقرأ الكتاب ورماه إليه فادفع إليه الثاني، فإن قرأه ورماه إليه فادفع إليه الثالث، فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه. فاحتبس الكتابين الآخرين. فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه ورماه إلى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه. فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول إلى دار الضيافة. ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بخلوان بلغه ما كان من أن قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعا سيد بني تميم فثاروا على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه.

قال رجل من عجم خراسان: معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن احتلهم واقتلهم وكان يمسون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تآنى .

كانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع وعلى كل حال إن الذي حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك .

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيما لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم. أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الآسارى وخلي أهل السجون وأحسن إلى الناس. والغريب أن هذا لا يستقيم مع أفعاله تجاه القادة الثلاثة، وهو ما يطرح علامة شك.

الفتوحات الإسلامية :

جهات الشرق

في عهده إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الأصبهذ قتالا شديدا ثم صالحه أخيرا وبيننا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد إليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة. وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين.
وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك:

(أما بعد فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحا عظيما وصنع للمسلمين أحسن صنع فلربنا الحمد على النعمة وإحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان. وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى بن قبادى وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة في نعمة عليه وقد صار عندي من خمس ما فاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حقه من الفياء والغنيمة ستة الآف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله) .

في بلاد الروم:

في عهد سليمان (سنة ٩٨) جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمر يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر.

ولاية العهد:

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولى عهده ولما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقته على ذلك وكتب : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا

تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء:
أذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من
غير أن يعلموا من سماه.

وفاته :

توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر
سنة ٩٩ هـ بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت عمره يوم توفي (٤٥
سنة) .

المحاضرة الثامنة

خلافة عمر بن عبد العزيز

(٩٩ هـ - ١٠١ هـ)

عناصر المحاضرة

- مبايعة عمر بالخلافة .

- سياسته مع الولاة .

- مناظرة عمر مع الخوارج .

- الحوادث الخارجية .

- وفاة عمر بن عبد العزيز .

مبايعة عمر بالخلافة :

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان (ولد سنة ٦٢ هجرية) وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه.

لما مات سليمان خرج رجاء بعهد الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه.

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة والبرانيين والخيل والبغال وكل دابة سانس فقال: ما هذا؟ قالوا: مركب الخلافة قال: دابتي أوفق لى. وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل

سائرا فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فسطاطى كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد.

كان عمر بن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أيهم بجمعها كذلك كان عمر بن عبد العزيز.

سياسته مع الولاة :

وفي أول خلافته أرسل كتابا عاما إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان، وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس على بهين ولو كانت رغبتني في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسألة غلطية إلا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك). وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقى عليه من أمر المسلمين.

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السرح: إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناها فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم فوجهوا منهم قوما إلى عمر فلما علم ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلما أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة. فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجد حربا لأن ذوي رأيهم قالوا: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندرى لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد أجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا؛ وهذا عمل لم نعلم أن أحدا وصل في العدل إليه.

ومما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه إليهم ووجه معه جندا وأوصه بما أمرتك فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي.

وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعو ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر: (بلغني أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فلهم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا ودخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك فنظر في أمرنا) فكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. ولما وصل هذا الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر: ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقيتم؟ فقال المتكلم: ما نقينا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتزرتهم أمرهم. فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلى رجل كان قبلي فقيمت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم. فقال: بيننا وبينك أمر واحد رأيانك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وأبرأ منهم، فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا وقال إبراهيم (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون؟

قال: ما أذكر متى لعنته قال أفيسحك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا سعني إلا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون. قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقرب به وبشرائه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد فقال الخارجي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء. قال الخارجي: فأبرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر: أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق؟ قال: بلى قال: أتعلم أن أبا بكر حين

قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال قال: نعم قال: أتعلم أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية: قال: نعم قال: فهل برئ عمر من أبي بكر قال: لا، قال: أفتبرؤون أنتم من واحد منهما؟ قال: لا قال: فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريتته وهي حامل قال: نعم، قال: فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال: لا، قال: أفتبرؤون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قال: لا قال: أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد، فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونهم ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دمائهم وأموالهم فقال الخارجي: رأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أترأه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل قد سلم قال عمر: لا قال: أفتسلم هذه الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال: إنما ولاءه غيري. والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال: أفترى ذلك من صنع من ولاءه حقا. وكان هذه السؤال الأخير محرجا لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه.

وكانت هذه المناظرة سببا لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء، وأما الثاني فقال: ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم، فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلبا للأخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره، وهذا نهاية الرفق على أمته.

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنبر وكان بنو أمية يفعلونه

فتركه وكتب إلى الأمصار بتركه. وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء مما يقول بنو أمية فقال عبيد الله: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال: لم أسمع ذلك قال: فما الذي بلغني عنك في علي؟ فقال عمر: معذرة إلى الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استحلط وضع مكان ذلك (إن الله يأمر

بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلمكم
تذكرون). فأى شر رفع وأي خير وضع.

ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب إلى سلميان ابن أبي السرى
أن اعمل خانات فمن مربك من المسلمين فأقروه يوما وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به
علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده.

ومما يذكر له أنه أبطال مغارم كثير كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف فقد
كتب إلى أمير العراق (أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام
الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شيء
أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الإثم ولا تحمل خرابا على عامر خذ منه ما طاق
وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل
الأرض ولا تأخذ أجور الضاربين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا
أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة
فاتبع في ذلك أمرى فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) ومما فعله أنه **نهى عن تنفيذ
حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل**
على حسب هوى الأمير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد. ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل
هذه الحدود وضم رأي الخليفة إلى رأي القاضي الذي حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد
وقع موقعه.

ردة المظالم لأهلها - لما ولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم إن فذك كانت
بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراد الله ثم وليها أبو بكر وعمر
كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلى ولم تكن من مالي أعود منها على وإني
أشهدكم أنني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
لمولاه هممت بردة على أربابه قال: فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال: أكلهم إلى
الله فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له: إن أمير المؤمنين قد عزم
على كذا وكذا وهذا الأمر يضركم وقد نهيته عه فقال عبد الملك: بنس وزير أنت ثم قام
فدخل على أبيه وقال: إن مزاحما أخبرني بكذا وكذا فما رأيك؟ قال: إني أردت أن أقوم به
العشية، قال: عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث. فرفع عمر يديه

وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ثم قام من ساعته في الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففرع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأنته فقالت: تكلم يا أمير المؤمنين فقال: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملهما ثم يزل يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت: حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقاتلك هذه فلا أذكر شيئا أبدا. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه وقالت: أنتم فعلتم هذه بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده. فسكتوا.

ولما ولى عمر قال للناس في خطبته: (من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهد، ويداننا من الخير على ما نهتدى إليه ولا يغتابن أحدا ولا يتعرض فيما لا يعنيه) فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذه الرجل حتى يخالف قوله فعله .

كان عمر غير مترف فكان مصرف كل يوم درهمين وكان يتقشف في ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير. وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذي توفي فيه دخل عليه عمر فقال: يا بيني كيف تجدك: قال: أجدني في الحق قال: يا بني إن تكون في مزاني أحب إلي من أكون في ميزانك فقال: يا أباه لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة، قال مرة لأبيه: يا أمير المؤمنين ما تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه أو باطلا لم تمته؟ فقال: يا بني إن أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلى وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا ألا تطلع الشمس على في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك.

وعلى الجملة فإن عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيرا. ويرى المسلمون أن عمر هو الذي بعث على رأس المائة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء في الحديث (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها).

وربما يسأل عن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو في بيئة المترفين. والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان فنقول: إن عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربى فيها بين فقهاء وصلحاءها، فأكتسب حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها ولرافة بها. قال محمد بن علي الباقر: إن كل قوم نجبية، وإن نجبية بني أمية عمر بن العزيز وإنه يبعث يوم القيامة وحده. وقال ومجاهد: أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه، وقال ميمون: كانت العلماء عند عمر تلاميذه، وقال عمر: ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر.

لم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على

يزيد بن المهلب وإحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال: لا أجد في أمرك إلا حبسك فأتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركنها. **وحبس بحصن حلب** فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال: يا أمير المؤمنين إن الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليه فصالحني على ما تسأل فقال عمر: لا إلا أن تحمل الجميع فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينة فخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر: ما آخذه إلا بجميع المال. فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنه حتى إذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفا من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قدر حارب آل أبي عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجا بنت أخي الحجاج وهرب ابن المهلب قاصدا البصرة وكتب إلى عمر إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة. فورد الكتاب وبعمر رمق فقال: اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه بي وهضه فقد هاضني .

الحوادث الخارجية :

في عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب.

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية وطرندة داخلية في البلاد الرومية من ملطية ثلاث مراحل. وكان عبد الله بن عبد

الله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها (سنة ٨٣) و ملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودن إلى بلادهم فلم يزلوا كذلك إلى أن ولى عمر فأمرهم بالعود إلى ملطية وأخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو وأخرب طرندة .

وفاة عمر بن عبد العزيز:

في (٢٥ رجب سنة ١٠١) توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لا، ه ذكر وفاة سليمان (٢١ صفر سنة ٩٠) وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكره إلا أنه ذكر في بعض الروايات أن سليمان توفي لعشر مضي من صفر بد بقين منه. وإذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الراية في موت سليمان بل ذكر وفاته في (٢١ صفر) .

خلافة يزيد بن عبد الملك

(١٠١ - ١٠٥ هـ)

عناصر المحاضرة

الأوضاع الداخلية

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد (سنة ٦٥) وعهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر ببيع بها. فلما تولى عمد إلى كل صالح فعله عمر بأعاده إلى ما كان عليه. وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان. وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدى بن أرتاة فاستولى عليها

وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك

خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوبا من جهاد الترك والديلم. فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال: والله لقد رأيتك ومواليا عليك فما ينبغي لك ذلك. فقام إليه أناس فأسكتوه خوفا من أن يسمعه ابن المهلب.

وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم ويقولون يدعوننا إلى سنة العمرين فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب نصباً ثم وضع عليها خرقة ثم قال: إني قد خالفتم فخالفوهم قال هؤلاء القوم: نعم وقال: إني أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذي فيه حبسه .

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطا فأقام به أياما ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين

الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوة حبيب وانكشف من كان معه من الجنود. لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قنابيل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا، وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهي الأمم بهم ولما تم على يد مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولا أخوة العراقيين ثم عزل بعد بعمير بن هبيرة الفزاري.

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان.

وولى ابن هبيرة سعيد الخرشى على خراسان وكانت له مع الصغد أهل سمرقند وقانع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها.

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراي فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم ففجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتلوا هناك قتالا شديدا فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال: يا أمير المؤمنين ما جنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي،، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد. **ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل**

يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على أرمينية وأمدته بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل بردعة، وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبير نهر الكرو، ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحدا من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفرا عظيما ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه، ثم سار إلى بلنجر، وهو حصن عظيم من حصونهم فنزلته وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار، ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو. ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الويندر وبه نحو أربعين ألفا من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه، وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثرا وفتحا في تلك البلاد القاصية .

ولاية العهد

كان يزيد يريد توليه ابنه الوليد من بعده، فقبل له إنه صغير، فولى أخاه هشاما ومن بعده ابنه الوليد.

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان (سنة ١٠٥) توفي يزيد بن عبد الملك بالبقاء من أرض دمشق. وسنة يومئذ ثمان وثلاثون سنة، وقد أقام خليفة أربع سنين وشهرا (من ٢٥ رجب سنة ١٠١) إلى (٢٥ شعبان سنة ١٥٠).

خلافة هشام بن عبد الملك

(١٠٥ - ١٢٥ هـ)

عناصر المحاضرة

الأحوال الداخلية

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد (سنة ٩٢) من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير، وأمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومية.

وكان حين مات أخوه يزيد مقيما بجمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول (سنة ١٢٥) أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما وكان هشام معدودا من خير خلفاء بني أمية. ولعمري إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك. الأحوال الداخلية في عهده:

في العراق والشرق - كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني. فأختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله وأستعمل الجنيد ابن عبد الرحمن على السند.

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقدما غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم، وفي (سنة ١٠٧) نقل من كان بالبروقان من جند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقعه مسكنا. وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان. وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس. ضرب نصر بن سيار ونفرا معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحره والبختري وأبى درهم وحلق رؤوسهم وسيرهم إلى أخيه خالد. وهؤلاء هم قرون مضر. فقال في ذلك الفرزدق الشارح وهو تميمي من مضر.

وخطب أسد يوما فقال: قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني.

فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب إلى خالد: اعزل أخاك فعزله ثم ولي هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكتب خالدا. وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا يسمونه الكامل لفضله، فلما قدم خراسان فرحوا به ولأول عهده أرسل إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى أمير سمرقند إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعودا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه. كان رسول أشرس إلى الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيداء صلاح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصى الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والداهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فأعانوهم. لما علم بذلك أشرس خرج غازيا في جنوده حتى عبر النهر من عند أمل فأقبل الصغد والترك. وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون يهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم. ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشا لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستنقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم. فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان بها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق واستماتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدتهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم. ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم: إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له: ليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم اتفق معهم خاقان أخيرا على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى مسرقتند أو الدبوسية فأخذ المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين.

وفي (سنة ١١١) عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المري فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضريا.

في (سنة ١١٢) خرج غازيا يريد طارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفا إلى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير مسرقتند أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم أطلق أن أمنع حائط مسرقتند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر. فقال له ذوو الرأي ممن معه إن أمير خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفا وأنت قد فرقت جندك، قال: فكيف بسورة (أمير مسرقتند) ومن المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين مسرقتند أربع فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. ولما اشتد القتال ورأى الجند شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله ابن حبيب: اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر، قال هلاك سورة أهون علي قال: فاكتب إليه فليأتك في أهل مسرقتند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه. فكتب الجنيد إلى سورة يأمر بالقدوم. فرحل سورة عن مسرقتند في اثني عشر ألفا فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيهم فقاتلهم أشد قتال فأنكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة باتقدت فخذة وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى مسرقتند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزموهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل مسرقتند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من مسرقتند محترسا على تعبيته فلقبته بالطريق جنود خاقان فهزموها. ولم يزل سائرا حتى ورد بخارى، والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره.

وفي (سنة ١١٦) **عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي** وكان هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد المهلب فقال لعاصم: إن أدركته وبه رمق فأزق نفسه. فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابس السواد داعيا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على البلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابلته فهزموه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث.

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد) فإن الرائد لا يكذب أهله وإن

خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون مرادها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد من أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غيائه عنها. فعزل هشام عاصم عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد. ولما بلغ عاصم إقبال أسد صالح الحارث ابن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وأن يكتب جميعا إلى هشام بسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن أبى اجتمعا عليه. فحتم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون، وقالوا: هذا خلق لأمير المؤمنين لم يتم أمر صالح وحصلت موقعة أخرى بين

الحارث وعصام انهزم الحارث هو وأصحابه. ولما قدم أسد حبس عاصما وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد .

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله، ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض، وأرسل أسد إلى هشام بما فتحا لله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكرا.

وفي (سنة ١١٩) غزا أسد الختل وغلب على قلعته العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فملنوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله إلى الصين في (سنة ١٢٠) توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم هممة وأشدهم شكيمة.

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالدا القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملا على اليمن. فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخر (سنة ١٢٠) وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحسبه وقبض على عامله ومشى على تلك القبيحة المشنومة.

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازما للمسجد ضابطا لحشمة وأهله من الناس لين الكلام متواضعا حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحدا حتى يصلي الضحى. ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفا في ضرب الأبخار فكان يأخذ الثوب الجيد فيمر ظفره عليه فإن تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة.

ولى خراسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكتب يوسف بن عمر. وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره. وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سرا قبل (١٥) ألفا وقيل أربعون. وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ. وبلغت الأخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيا له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤوا زيدا وقالوا له: ما قولك في أبي بكر وعمر قال: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يقول فيها إلا خيرا وإن أشد ما أقول فيما ذكرت أنا كنا أحق بتولي هذا الأمر منهم ومن الناس أجمعين لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلا قتالهم، فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم وإما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى سنين أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام يعنون محمدا الباقر وكان قد مات فسامهم زيد الرافضة. وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتها أكثر من مانتى نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلته عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد، ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق. وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن.

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما ورواء النهر كان له فيها النصر دائما، ووضع الجزية عم أسلم من العجم وانتهت مدى هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان.

في أرمينية وأذربيجان - أمر أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات إلى ما وراء البحر وفي (سنة ١٠٧) عزل هشام وولي بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نابا عنه وهو الحارث بن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثرا وفي (سنة ١١٠) سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فلقى ملكهم في جموعه فاقتلوا قريبا من شهر وكانت الهزيمة على الترك.

وفي (سنة ١١١) عزل هشام مسلمة ورد الجراح قد دخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالما فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقبهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس. فصبر الفريقان وتكاثر الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بموج أردبيل . وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب. فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيدا الحرشي وأتبعه بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط فاقتتلوا عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئا بعد شيء إلى أن وصل برذعة فنزلها. كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار إليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر، فما بزغت الشمس حتى جاؤوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة. وعلى الجملة فإن الحرشي أذل الخزر إذلالا شديدا واستنقذ منهم كل ما قد استولوا عليه .

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانيا فسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصونا ودان له وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعا الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير. فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وآخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق.

وفي (سنة ١١٤) قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئا مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمدّه بمائة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فأجابته إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفذ بجموعه أمامه ذليلا فأقام مروان في تلك البلاد أياما ودخل بلاد السرير فأوقع بأهله وفتح أقلاعا ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحرية وخافة الترك خوفا شديدا ودانت له جميع البلاد على شاطئ بحر الخزر .

في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة، وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك و معاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام، وقد افتتحوا في غزواتهم بلدانا كثيرة منها رومية وقونية وخرشنة وقيسارية وكثيرا من الحصون والقلاع.

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة.

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت (سنة ١١٣)، وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت، أمن الجنة تفرون؟ ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه، فقال: تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل، وفي (سنة ١٢٢) قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفا شديدا وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمره على رؤوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال إنه ثقة شجاع فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم .

في الحجاز

كان والي الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفي (سنة ١٠٦) حج هشام بن عبد الملك ومما يروى عنه في حجه هذا: لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول: يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزلوا يلغنون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلغنه فيها، فشق على هشام قوله وقال: ما قدمنا لثمت أحد ولا للغنه، قدمنا حجاجا. ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوي هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه.

لما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له: أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له ألا رددت على ظلامتي قال: أي ظلامه؟ قال: داري قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال: ظلمني، قال: فالوليد وسليمان قال: ظلماني قال: فعمر، قال: رحمه الله رها علي قال: فيزيد بن عبد الملك، قال: ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي بها وهي في يدك فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربتك قال: في والله ضرب بالسيف والسوط فاتصرف هشام وهو يقول: لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا .

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذي يقيم للناس حجهم إلا في (سنة ١١٦) فإن الذي أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد وفي (سنة ١٢٣) حج يزيد بن هشام بن عبد الملك.

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام.

وفي مصر والمغرب

فستكلم عليه إن شاء الله وحده في تاريخ مصر، هذا مجال حال الأمة العربية في عهد هشام الذي طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء إلا أن الذي يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربيعة ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعبا جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فإذا ضعف أثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميمة المؤكد أنه لا بقاء للأمة معه، وهكذا حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل.

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدأ لهشام أن يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وإن كان قد أجابه بعض القواد إلى ما أراد، وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعدا له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن

وفاته

لست خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٢٥) توفي هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنوية وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥).

صفته:

كان هشام مشهورا بالحلم والعفة، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال له الرجل: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض. فاستحيا منه هشام وقال: اقتص من قال: إن أنا سفيه مثلك قال: فخذ من عوضا من المال قال: ما كنت لأفعل، قال: فهيبها لله قال: هي لله ثم لك. فنكث هشام رأسه واستحيا وقال: والله لا أعود لمثلها أبدا.

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس: جمعت دواوين بني أمية فلم أرى يدونا أصح للعامّة والسلطان من ديوان هشام. وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض. والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديد الميزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف ولعل **هذا هو الذي جعل الناس يصمونّه بوصمة البخيل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفا حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره**. ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء إليه كثيرا حتى ساء خلقه. ودعا إلى خلق الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته .

المحاضرة الحادية عشر

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(الوليد الثاني ١٢٥ - ١٢٦ هـ)

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(يزيد الثالث ١٢٦ هـ)

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان وليا للعهد بعد هشام وكان مغاضبا له في حياته حتى خرج وأقام في منطقة الأزرق ببر الأردن في البرية .

ولم يزل مقيما في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد.

كان مما يهيم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموي.

كان ممن أجاب هشاما إلى خلع الوليد محمد إبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليا عليها ودفع إليه محمدا وإبراهيم موثقين في عباةتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد: أسألك بالقرابة. قال: أي قرابة بيننا؟ قال: فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط إلا حد قال: ففي حد أضربك وقود أنت أول ما فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه

وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى إياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديدا وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا. وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد .

وكان خالد بن عبد الله القسري سيذا من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سببا في أن أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفي والي العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطء وعذبه عذابا شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذابا شديدا حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاة وهم أكثر جند الشام.

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك.

بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع.

أنت اليمانية يزيد بن الوليد فأراد على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايعه الناس سرا وبعث دعائه فدعوا إليه الناس .

وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم. فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد إلى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهده فكتمه يزيد الخبر فصدقه. ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سرا وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهاز جيشا لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب إليه وهو بالأغداف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق.

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخر (سنة ١٢٦ هـ) وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية .

خليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك :

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى.

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخر (سنة ١٣٦)، وكان يسمى يزيد الناقص. قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردھا إلى ما كانت عليه زمن هشام. وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب في البيت الأموي ومبدأ انحلاله وذهاب سعاداته.

وأول ما كان من الاضطرابات بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حمص وهو من سادة بن مروان نبلا وكراما وعقلا وجمالا. فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسالا فيهم يعقوب بن هانيء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردها رسل يزيد. وحينئذ جهز لهم جيشا عليه سليمان بن هشام فصار ذلك الجيش حتى نزل حوارين. كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدأوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفباني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجدا في أثرهم فلحقهم بالسليمانية. وكان يزيد قد أرسل جندا آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على

قتال يزيد ابن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفباني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفا ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد .

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإن يزيد ولي العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر ابن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية فأبى ذلك عليهم، فقام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الأزدي المعنى ويلقب بالكرماني لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظمين من العرب وهما اليمانية والنزارية، فساتحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الأزدي حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكانت تقع بينهما لولا أن سعى الناس للصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لأن كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئا لدعاة بن العباس، ولم يكن عنده ولادة الأمر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلثة التي أثارها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال* .

ولم تطل مدة يزيد في الخلافة فإنه توفي لعشر بقين من ذي الحجة (سنة ١٢٦) بعد

خمس أشهر واثنين وعشرين يوما من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه

إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن عبد الملك . فلما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما .

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية إبراهيم فسار إلى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الحر قابلته جنود أرسلت لحربة من قبل إبراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليها وباعه أهلها وهرب إبراهيم ابن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء** .

المحاضرة الثانية عشر

خلافة مروان بن محمد بن الحكم

مروان الثاني

(١٢٦ - ١٣٢ هـ)

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لإبراهيم ابن الأشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان (سنة ٧٠ من الهجرة) وكان واليا على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهب في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك. وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها (سنة ١٢٧).

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ إلى أن قتل.

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعيا إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جدا وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجذب في حربه، وكانت العامة تميل إليه لمحبتهم لأبيه فساعد ذلك على أن غلب عبد الله بن معاوية ونفاه عن العراق.

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتفض عليه أهل حمص، وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم. ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم. ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له: أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة. فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فحاربهم بقتسرين وكتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياد فأقبل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عددا عظيما فقتلهم ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت

ثلاثين ألفا ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص اجتمعت عليه الفلول فقصده مروان، وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا،

ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها، وأمر مروان فأتى حمص واستولى عليها. فأتتم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بن أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقا محزنا تبعا لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص.

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فتبعوه. ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك محاصرا لحمص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته في الجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف. ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفرتوتا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخبيري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخبيري إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخبيري ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز المعسكر بخمسة أميال فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها وبات ليلته في عسكره .

ولما علم الخوارج بقتل الخبيري ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر.

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جندا لمساعدة مروان. فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قالته شيبان قاتلة فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك (سنة ١٣٠) .

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر (سنة ١٢٨) فقال: يارجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي خرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان .

وبينما الناس بعرفة (سنة ١٢٩) إذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعمائة ففرع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان. فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا: نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير.

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلي مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البحث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليه عبد العزيز بن عبد

الله بن عمر بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر (سنة ١٣٠) ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلغى فيها حربا. وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا بطرا ولا عبثا ولا للدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكننا لما رأينا مصابيح الحق عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أقبلنا من قبائل شتى نفرنا على بغير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون في الأرض فقوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعا بنعمته إخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحقكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين.

يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر. يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركا أو عابدا وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إماما جائرا. يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب. يا أهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابرا محاربا لربه. يا أهل المدينة بلغني أ،كم تنتقصون أصحابي قلت: شباب أحداث وأعزاب جفاة، ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفسا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيامهم نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة فلما نظروا إلى السيف قد انتصبت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتبية لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا لو عيد الكتبية فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها ظلما اعتمد بها صاحبها. أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

ثم إننا أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاوم الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يلغ اليمن ويقاوم عبد الله بن يحيى. فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى فقاتله حتى قتله وخزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شرها وبعد ذلك سار إلى اليمن وبلغ عبد الله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا وقتل عبد الله وحمل رأسه إلى الشام .

كل هذا المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعه بن العباس ورئيسهم المقدم أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعه أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسنفضل حديثهم وما كان منهم حينما نشغل بتاريخ الدولة العباسية.

وفي شهر ربيع الأول (سنة ١٣٢) **بويج بالكوفة لأبي العباس السفاح أول الدولة العباسية.** وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الأخير، فأختار عمه عبد الله بن علي قائدا لذلك

الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة (سنة ١٣٢) وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصدا مصر أرسل عبد الله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلا في كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة (سنة ١٣٢) وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير **) .

الثالثة عشر

النظم الإسلامية في الدولة الأموية

الخاتمة

في مدنية الإسلام في عهد الدولة الأموية وأسباب سقوطها

الخلافة الإسلامية:

لبست الخلافة في عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصددهم عنه باب وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة وبعد أن كان عمر بن الخطاب يقول على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان في

خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهي ويربي ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة في وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنة واحترام الأمير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نرى الروايات عن قضيبة الخلفة وخاتمها.

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجترئ أحدهم بأقل ما يجترئ به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف فاخترت لهم الألوان وتبسطوا بما ل وطاب فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلفة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته وإما ابنه أو أخاه أو ابن عمره شأن الملك المغيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس: تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، أو تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر؟ فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة.

وإذا كنا على رأي من يقول: إن الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه.

وعلى الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لا نحصر الخلفة في بيت واحد.

الانتخاب والبيعة:

جری خلفاء بنى أمية على اختيار أولياء العهد فى حياتهم فكلهم كان مختارا من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبى سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد اخذوها بالقوة، فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة، ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك ويزيد الثالث خرج على ابنه عمه الوليد ابن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله. ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل فى أخذ ورد حتى دالت دولتهم على.

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية، ومعاوية الثاني أختاره يزيد، وعبد الملك اختاره أبوه مروان، والوليد وسليمان

أختارهما أبوهما عبد الملك وعمر و يزيد أختارهما سليمان: الأول ابن عمه والثاني اخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد : الأول أخوه. والثاني ابنه.

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اُخار أحدهم واحدا لولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاظهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعوا عنها كانت سببا مهما من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه.

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيدا لعهد والميثاق.

وأول من يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شنوا أحيانا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه.

إدارة البلاد:

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى هي:

١. الحجاز: وينتظم المدينة ومكة والطائف وقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمر.

٢. العراق: وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان، والأمير يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها، خراسان تستقل أحيانا بأمر يخاطب الخليفة رأسا وقد يضاف أحيانا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة.

٣. الجزيرة وأرمينية: وتنظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية.

٤. أجناد الشام: كانت خمسة وهي: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، وكانت قنسرين وكروها مضمومة إلى حمص، حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جندا برأسه، وإنما سمي كل منها جندا، لأنه يجمع كورا والتجند التجمع، وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يجمعون كورا، التجندي التجميع، وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه، والأقرب أن هذا هو أصل التسمية.

٥. مصر وإفريقية وتنظيم بلاد مصر وشمال إفريقية، وكانت إفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر.

٦. بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى إفريقية.

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود إمارته وكانت الأعمال التي ترجع إلى الخلفاء هي:

١. إقامة الصلاة.

٢. قيادة الجيش.

٣. جباية الخراج، والصدقات ووضع ذلك مواضعة.

٤. القضاء بين الناس في منازعاتهم، وقد كان الأمير يقوم مقام الخليفة أحيانا في جميع ذلك ويقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائدا للجيش ويعين جابيا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس. وتارة كانوا يقصرون الولاية على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع إليه رأسا.

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الإداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري إلا أنا الحجاج كان أبرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد.

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامه من أن يرفع أمره أمره إلى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته، وقد ضيف على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم وأن لا ينفذوا حدا من الحدود من قبل أو قطع إلا إذا عرض عليه أمر بتنفيذه، أما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه من الخليفة ولا من الناس.

والذي دعا إلى تمت الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته لطل عليهم الزمن، وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير.

ومن أعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم إذلال الأمراء ومصادرتهم في أموالهم وأحيانا الإتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا. وقد ابتداء هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فاته أدل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل، ووطنوا لهم المنابر، واستمر الأمر

على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز إلى أنت انتهى أمرهم، وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الأموي، ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالدا وعمالة بخمسين ألف فدفعه إليه فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله في الليل ودفنه من وقته بالحيرة في عباءة التي كان فيها وذلك بعد أن ولي خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم.

قيادة الجنود:

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح، ففيه اتسعت حدود المملكة الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والصغد وبلاد الترك. ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية بلاد الروم ومن جهة الغربية في إفريقية والأندلس.

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام، حينما مع الخوارج وحينما مع طلاب الخلافة من بني علي ولم يخل عصر خلفية أموي من حروب داخلية إلا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. فهي إذا دولة حربية. ولا جرم أن أمتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغى، واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير في الحروب. وها نحن نورد على أسماعكم جملة من أولئك الأفراد العظام الذي مر ذكرهم .

ممن اشتهر بالشرق:

١. المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان علمه تاما بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات.

٢. قتيبة بن مسلم البهالي وكن شجاعا مقداما لا يردده شيء عن قصده، واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دوح تلك البلاد وأذل أهلها، وقد أخذ عليه خلعة لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته، وكان سبب هلاك قتيبة وأهل بيته، وفقد الدولة صالح خدمتهم.

٣. يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فإنه رد أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق - طريق خراسان - وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعة ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته، وكان سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة جبين الدولة الأموية.

٤. أسد بن عبد الله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائدا قبله وأخذ عليه عصبته لقومه من اليمن على غيرهم من نزارحتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم.

٥. محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل في أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر في أرمينية وأذربيجان.

٦. محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شجاعا أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان.

٧. مروان بن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداما سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيه البلاء الحسن.

٨. الجراح بن عبد الله الحكمي، وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر واشتهر في بلاد الروم.

٩. مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيرا من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمه، ولم يكن بنو أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر.

١٠. أبو محمد عبد الله الباطل كان رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة .

١١. العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتي والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وإفريقية.

١٢. عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في إحدى تلك الوقائع.

١٣. موس بن النصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا الأندلس وأدخلا الإسلام في قارة أوروبا.

وهناك غيرهم من القواد، لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همّة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يحمي البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم، وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمون من مراكب الروم ولم يكن أمراء البحر في الدولة الأموية يقلون مهارة وإقداما عن أمراء البحر الروميين. وعلى الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينافسها دخیل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجيبا.

القضاء والأحكام:

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام. قال محمد بن يوسف الكندي في (كتاب الدين ولوا مصر)

(ص ١٠) : أختصم إلى سليم بن عنز (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند. قال: فكان أول القضاء بمصر سجل سجلا بقضائه.

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم إذ لم تدون إذا ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعا إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم.

كان توبة بن مر لا يملك شيئا إلا وهبة ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم. فلما ولى القضاء بمصر في عد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفية والمبذر فرفع إليه غلام من حمير لا تحتوي يده شيئا إلا وهبه وبذره فقال توبة: أرى أن أحجر عليك يابني، قال: فمن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما بلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفية بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها. وأحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاضي مصر من قبل عمر بن عبد العزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها لأول فالأول من الجيران، فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام تخالف بعضها بعضا في الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد، ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم أو يحمل مجتهد كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين، لم يفعلوا هذا ولا ذاك، بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه.

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن خديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان، فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابا وكان عنده. قال الكندي: فجرى الأمر على ذلك.

وكانوا يتولون الأحباس، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظا لها من التواء

والتوارث. فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانا عظيما وكان ذلك (سنة ١١٨) فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر.

وكان اختيار القضاة يرجع غالبا إلى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحيانا كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم. ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مد الأيدي إلى السحت. رأيت أن عبد الرحمن بن مجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مني دينار ومن القصص مني دينار ورزقه في بيت المال مني دينار وكان عطاؤه مني دينار وكانت جائزته مني دينار، فكان يأخذ ألف دينار في السنة. ورأيت في الكندي أمرا بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال، أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربع الآخر (سنة ١٣١) عشرين دينارا واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء ليلة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدما

الدواوين:

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة:

ديوان الجند.

ديوان الخراج.

ديوان الرسائل.

فأما ديوان الجنيد فإنه مذ وضع كان بالعربية، لأن عمر إنما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب وخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا كتاب قريش، وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعيانهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية).

وأما ديوان الخراج فإنه كان بالعراق باللغة الفارسية وبلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبى سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه. شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أن الذي وقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يدمني فتسقط منزلتك، قال زاذان: لا تظن ذلك هو أحوج إلى مني إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال: صالح: والله لو شئت أن أول الحساب إلى العربية لحولته، قال فحول منه أسطرا حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض.

فبعث إليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحا فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول الله در صالح ما أعظم منته على الكتاب وأما ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منشور بن سرجون. وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٧) ووليه ابن يربوع الفزاري من حمص، هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصروف أو هو ديوان (المالية) وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً. وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي ختم فيه الكتب بعد أن تكتب، وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيد الخاتم خاتم الخلافة. وقد ذكرى الطبري في حوادث (سنة ٧٢) أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبري: وكان من البلاغة في مكان مكين.

الرابعة عشر

السكة الإسلامية

سقوط الدولة الأموية

المحاضرة الرابعة عشر

السكة الإسلامية:

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه في بعضها الحمد لله، وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل. وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر.

قال المقرئزي: فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال: يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبا للإحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت عيارا دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقا وضعت لك به السنة الصالحة، ف ضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطا تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضا دنانير عليها تمثال متقلد سيفا.

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك مسموحا غليظا قصيرا فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوة مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاهم الناس في العطاء.

فلما استوثق الأمر لبعث الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله و مصعب أبني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكايل وضرب الدنانير والدرهم ي (سنة ٧٦) فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى والقيراط أربع حبات كل دانق قيراطان ونصف، وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك ف ضربها

وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضي الله عنهم اجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى ولا يعيب من /رها شيئا وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي وهي الميالة الوازنة كل مائة دينارين أي أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين (١٠٠ و ١٠٢).

ثم قال: وكان الذي ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له (سمير) فسميت الدراهم إذ ذاك السميرية. وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدراهم بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلها من المال كي يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولا فأولا. وقدر في كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

ثم قال: وكان الذي دعا عبد الملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية والعتق تبقى مع الدهر. وقد جاء في الزكاة أن في كل مئتين أو في كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق إن جعلتها كلها على مكان السور العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وإن عملتها كلها على مثل الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عددا وجبت الزكاة فيها، فإن فيه حيفا وشططا على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجتمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك .

وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار، فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق فجمعها وكمل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى، واعتبر المثقال أيضا فإذا هو لم يبرح في آباد الدهر موافق محدودا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره.

ثم قال ومات عبد الملك والأمر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعا للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في (سنة ١٠٦) أن يعيد العيار إلى وزن السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد (سنة ١٢٠) وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسطة وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران إلى أن قتل.

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الأخير من خطه توضيحات نافعة في أمر الدرهم والدينار في الدولة الإسلامية، وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدينانير في الأزمنة المختلفة، وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يلغى على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها (٣٢ ، ٢٨ جراما) فسدسها الذي هو المثقال (٤،٧

جرام) وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسير إذ أن وزنه (٤,٦٩) وأن الدينار كان وزنه (٤,٣٥٠).

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة ذات قرشين تقريبا لأن وزنه (٣,٥٠) وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين (٢,٩٤ ج) وبين (٢,٧٠ ج) وأن وزن الدينار كان يساوي في الوزن نصف الجنية الإنكليزي لأن وزنه (٤,٢٥) وقد كان وزن الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين (٤,٦٤) وبين (٤,٢٢).

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقودا إسلامية لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالي وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطاتها أن تبقى عالية على الروم والفرس في الدرهم والدينار.

أسباب السقوط:

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقوة والغلبة لا عن رضا ومشورة فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذي كانوا شيعته على من خاله من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضى الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته. كان في الأمة العربية فريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هشام الأولون ذوو إقدام وبسالة ألداء لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعه والتي سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه.

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما لأن شكيمتهم وأسكن ثورتهم، فكان يغضي عن الزلات ويعفو عن السيئات، يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مرحا ومن العداء تقربا، ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة،

ويقرب القلوب النافرة، إلا أنه زل زلة كبرى قللت من قيمته عمله هي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الأمصار، فكان هو وأمرأؤه يفعلونه ذلك حين جعل النيران تتأجج في صدور شيعته، وكان كثير منهم يظهر بعد ذلك امتعاضا وربما رد الجريئ منهم الأمير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف في العقوبة يزيد الأمر شرا كما حصل من زيادة في أمر حجر الكندي.

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيرا فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا في القضاء عليهم وهي:

أولاً: ولاية العهد:

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموي، وذلك أن **بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر. وأول من فعل ذلك مروان** فإنه تحويل ولاية عهده إلى ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعده القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولي الوليد وسليمان. خطر ببال الوليد أن يغزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين. لم يستفد سليمان مما حصله فولى عهده عمر ابن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم، أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباع ما بين هشام والوليد، وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بممالة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين.

ثانياً: إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام معفياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبية التي أضعفت قواهم في جاهليتهم.

وقد نبض عرقها في أول الدولة مروانية فإن وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبيين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايح الضحاك وكتب التي كانت تشايح مروان يقدمها حسان بن مجدل الكلبى.

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن عبيد الثقفي كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمي كان ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يا لثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام، في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بي قيس واليمن في الشام وكان ما هو أشد منه في خراسان، فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخص لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن اكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة ذلك وسار إليهم

ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكان الهزيمة على ربيعة بعد أ، قتلوا جفاهم قتلا ذريعا ثم عاد ابن خازم إلى موقع.

وكان بنو تميم قد أعانوا بن خازم لأنهم من مضر، فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له، وكانت بينهم مواقع .

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساما أربعة: اليمن وربيعه وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر.

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولى يماني رفع رؤوس أهل اليمن واستعملهم عمالا على الأمصار، فإذا تلاه مضي عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله.

ولم يكن ذلك العراق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد والترک فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم، فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموي للذين يطالبونه بما فيه يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراساني أتكا على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم ولا ننسى أن لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يدا كبرى في إنماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجريير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك، لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف فتنتمي إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإن كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحقق على الأمة ويقرب منها الفناء فإن الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها. لم ينتج من إنما العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ثالثا: تحكيم بعض الخلفاء بني أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوي الأثر الصالح من شجعان ودولتهم وهذا متفرغ عن السبب الأول والثاني، فإن سليمان بن عبد الملك لما ولى بعد أن كان الوليد يريد إخراجهم من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم وحرّم نفسه وأمتة من الانتفاع بتجاربتهم فقد أهلك علي بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذي كان هواه مع الوليد ولا يميل إلى سليمان. ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وهلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بني أمية والأمة الإسلامية وكان بعد هذا شيء كثير فسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ومن يوازهم.

الأمة التي ينتقم خلفاها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأي ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الأمم سائرة إلى أمام

وهي في موقفها ولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مذلة إلا صادفتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر، إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر.